Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د. زاهية الدّجاني

يوسف

في القرآن الكريم والتوراة

دراسة مقارنة للمشاهد والعبر

Bibliotheca Alexandrina
0050821

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوسف في القرآن الكريم والتوراة

د.زاهية راغب الدجاني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يوسف في القرآن الكريم والتوراة

د.زاهية راغب الدجاني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك - بناية الوهاد
تلفون : ٢/ ٣٥٠٧٢١
٣٤٥٤٦٠ - ٣٤٤٢٣٦
فاكس : ٠٧ ٥٢٢١ - ٠٠٣٥٧٩
تلكس : ELTOUP LE ٢٢٦٦١
ص.ب : ٨٣٧٥
برقياً : انكلسامس
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٤١٥هـ-١٩٩٤م

تصميم الغلاف : عباس مكي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

بين طيات الكتاب

إن قصة يوسف، عليه السلام، كما جاءت في القرآن الكريم، تدور في اساسها حول محور العائلة، وتتناول العلاقات العائلية كنموذج للعلاقات الإنسانية الأوسع، وتبين بهذا الإطار، ما يكتنف هذه العلاقات من حسد وغيرة وطمع، ومن اجتراء على مشاعر القربى ومبادئ السلوك السليم. كما أنها تتضمن نوعا من « التمرد» على نظام الأبوية العائلية، ويتمثل هذا التمرد في تآمر الأخوة على الإبن المحبب إلى أبيه، وتحايلهم على أبيهم، وغشهم له، وكذبهم عليه، وهذا ما يحدّد السلطة الأبوية في واقع الحياة. لكن القصة تنتهي في تأكيد مجدد للولاء والصفاء العائليين لتبين أن التمرد على العائلة وعلى الأب جاء بأضرار وشرور لم تكن في الحسبان. بيد أن إعادة الوحدة العائلية تتحقق بفضل من الله تعالى، الذي اختار يوسف نبيا وصالحا وحلاّه بالأخلاق الحميدة، وجمّله بالتعالي عن الحقد والحسد وبالعفو عمن سبب له الأذى وقطع أوصال حياته، وبمبادلة الإساءة بالحسنى والإفاضة في هذه المبادلة. على أن ذلك يتم من خلال حوار عائلي يبين فيه يوسف باللطف وبالقسوة معاني الأخطاء والآثام التي ارتكبها اخوته ليأتي العفو مرتبطاً بهما. وبذلك، لا تضيع تلك المعاني في خضم النوايا الطيبة والعمل الصالح من جانب واحد.

ومن الملفت للنظر، أن هذا المحور العائلي يستمر حيث ينتقل يوسف من بيته - بيت أبيه وعائلته - إلى بيت سيد غريب عنه في بلد ليس بلده، وفي عالم غير عالمه. وكما أن الانتقال يتم في اطار جغرافي واجتماعي مختلف، فإنه يتم أيضا في مرحلة جديدة من مراحل حياته، اذ أنه انتقل الآن من الطفولة إلى الصبا والشباب واكتمال الجسم، وهذه مرحلة يرافقها تفتّح للعواطف والأشواق. وبينما كانت المرحلة السابقة من حياته العائلية بين اخوة له، وتحت مظلة أبيه، فإن المرحلة الحالية تشهد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أناساً غريبين عنه، كما تشهد أول لقاء له مع الجنس الآخر، المرأة. وهنا أيضا، وكما شهدنا في المرحلة الأولى، تتجه العلاقات في بادئ الأمر إلى الميل نحو الشهوة، غير أن الشهوة ما بين الرجل والمرأة هي ذات طبيعة مختلفة عن غيرها من الشهوات. وهنا نشهد بروز الجنس كعامل مهم من عوامل الحياة الانسانية. ويتبدّى التمرد نفسه الذي شهدناه في الاطار العائلي القديم على نظام العائلة، على السيد. والسيد هنا هو الزوج، والتمرد هنا هو على الحياة الزوجية نفسها، كما أنه يظهر كثورة عنيفة تكاد تجتاح يوسف نفسه، إلا أنه ينضبط تحت تأثير عاملين: العامل الأول هو مفهومه للعلاقات بين الرجل والمرأة، ذلك المفهوم الذي يستبعد الزنا والتحلل من قواعد العفة للرجل والمرأة سواء بسواء، اما العامل الثاني، فهو مفهوم الوفاء لسيد البيت الذي أكرمه واحسن معاملته، فوجب عليه أن يقابل العمل الطيب بمثله وان يمتنع عن أي اساءة أو أي أذى يلحق بهذا السيد، وقد يتحمل في سبيل ذلك الشيء الكثير. ويمكن القول إن هذه الحادثة ذات الطبيعة العائلية أيضا، كانت أول اختبار إلهي له على الطريق الشاق المؤدي إلى اكتمال تربيته وتأهيله الإنساني برعاية من الله عزّ وجل.

ويجب أن نذكر عند هذه النقطة، أن قصة يوسف تؤكد مبدأ الرفض القرآني القاطع للدعوة إلى الزنا. فالقرآن الكريم يوضح من ناحية، ما يعتبره الانسان شهوة حين يورد «ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه» (٢٤، سورة «يوسف١٢»)، ولكنه يضع الفريضة الإلهية في العفة فوق كل الشهوات، ويلزم الناس جميعا بها. إن قصة يوسف ليست قصة انسياق وراء المرأة كما يظن بعض أعداء الاسلام، بل قصة تعال وتسام على ذلك، بحكمة إلهية «برهان ربه». وورود كلمة برهان في الكلام المنزل لوصف هذه الحكمة يدل على أن الأمر امتحان للانسان، وأن على الإنسان ان يُثبت بالبرهان قدرته على اجتياز هذا الامتحان. وهذا أمر مخالف تماما، لما تقوم عليه الثقافة الغربية الحديثة، التي أصبحت تبيح العلاقات الجنسية خارج الزواج، ولا ترى فيها ضيرا اخلاقيا أو قانونيا أو أدبيا أو معنويا.

وعدا عن خوض قصة يوسف القرآنية في مبادئ اخلاقية ملزمة كما هو مبين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعلاه، فقد تطرقت إلى مسألة العلاقات الاجتماعية الأوسع خارج النطاق العائلي. وفي هذا الصدد، أبرزت بأن أول احتكاك اجتماعي هو الاحتكاك الذي تم بين يوسف وصاحبه في السجن، وإن هذا الاحتكاك هو الذي هيأ له الفرصة الأولى لاستخدام علمه السماوي في تأويل الاحلام.

وينتهي هذا التماس المجتمعي بدعوة فرعون ليوسف، بوصفه خبيرا في تفسير الرؤى، مما يتيح له الفرصة لإقامة علاقة مع صاحب السلطة العليا (أي فرعون)، غير أن القرآن الكريم لا يتحدث عن كيفية استثماره لهذه العلاقة الجديدة. وكل ما يشير إليه، هو أنه وضع مواهبه بتصرف صاحب السلطة لكنه استثمرها في خدمة بسطاء الناس، وفي التخفيف عنهم، وتوفير حاجاتهم الغذائية عن طريق التجارة.

وسوف تشكل تلك المواضيع وغيرها مادة للبحث في هذه الدراسة عن قصة يوسف القرآنية، التي تتبع بدراسة عن القصة نفسها الواردة بالتوراة.

د. زاهية راغب الدجاني

ربيع الثاني، ١٤١٣ هـ.

اكتوبر، ١٩٩٢ م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقدمة

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

«إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون. نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» (٢، ٣، سورة « يوسف»)

إن القرآن الكريم الذي انزل باللغة العربية على الرسول محمد (ﷺ)، قدم للانسانية قصة يوسف، عليه السلام، بهذه اللغة الرائعة. بيد أن القصة ذاتها عرضت في وقت سابق بالتوراة، وكانت باللغة العبرية وليست بالعربية. وعليه، فما أنزله الله تعالى من وحي على رسوله محمد (ﷺ) بصدد هذه القصة، كان ككل ما جاء في القرآن الكريم، وليس نقلا عن القصة الموجودة في التوراة. ومعنى ذلك، أن الله، عزّ وجل، قد ضمن القصة، كما جاءت في القرآن، المعاني والتفاسير التي لم تكن واضحة في الاصل التوراتي، وأن الله، عزّ وجل، قد أوصلها بنص جديد ضمن معانٍ جديدة. فلما كان متوقعا من المشركين الذين خالطوا اليهود ان يقولوا للرسول محمد (ﷺ)، إنه نقلها عن التوراة، فإن آية «إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» تدحض هذا القول، لتؤكد أن ما انزل على الرسول الكريم هو الوحي الذي يعطي المعنى الأزلي للقصة، والذي لا يوجد بالنص التوراتي. وبهذا الإطار، فالوحي اذن، هو المعنى وليس التسلسل في رواية الأحداث بشخصياتها وأماكنها، فالشخصيات الأساسية في القصة هي واحدة في القرآن والتوراة بوجه عام، لكن في حين أن الأحداث بشخصياتها واماكنها قد قدمت في التوراة كحكاية عادية من الحياة يمكن ان تحدث دائما، فقد خرجت عن هذا الاطار في القرآن، فالقصة القرآنية تقدم مفاهيم ازلية بصدد العلاقات العائلية والاجتماعية واثرها في حياة الأفراد، إضافة إلى مبادئ كثيرة اخرى تهم الجماعة الانسانية، ككل، في أزمنة وأمكنة عديدة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجدير بالذكر هنا، أن كثيرا من الاسرائيليات قد دخلت إلى التراث الإسلامي، وخصوصاً في اطار القصص القرآني، الذي لا مثيل له في التوراة، فقد اتخذ بعض المسلمين التوراة مصدرا لإكمال «فراغات» موجودة في القصة القرآنية. لكن الموقف الصحيح هو وجوب اعتبار تلك الفراغات مقصودة، وأن القصة كما جاءت في القرآن، مكتملة وغير منقوصة، مع أن المحاولة لاكمال الفراغات قد لا تتماشى في كثير من الأحيان مع المعاني الواردة في السياق القصصي القرآني، وتؤدي بالنتيجة إلى إعطاء مبادئ معاكسة.

فعلى سبيل المثال، عندما تحدثت القصة القرآنية عن ممارسة يوسف السلطة في مصر كمسؤول عن خزائن البلاد ـ ما قبل حدوث القحط وما بعده ـ فقد كانت توجه نحو ضرورة ممارسة السلطة بالحكمة والعلم، والتعقل، والعدل، والحزم، والرحمة وتضع يوسف كمثل أعلى في خدمة بسطاء الناس، والتخفيف عنهم، وتوفير ما يحتاجونه من طعام، لكن دون الخوض «بتفاصيل» عن اسلوب يوسف بالتعامل المالي مع هؤلاء الناس في وقت المجاعة. والمهم بالنسبة للقصة القرآنية هو المعنى الأزلي، والمعنى القرآني واضح بهذا الخصوص، لكن يبدو أن بعض المفسرين ظنوا أن إحضار تفصيلات مستوحاة، في كثير من جوانبها، من التوراة، بصدد تعامل يوسف مع الناس ابان حاجتهم القصوى إلى المعونة، قد يملأ فراغا في القصة القرآنية، فكانت النتيجة الإتيان بمعانٍ مخالفة للمضمون القرآني. ولإعطاء دليل على ذلك، نقرأ الفقرة التالية التي وردت في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

> ... فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك... فنادى يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول أوان القحط... فجعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم في السنة الأولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار الا أخذه منهم، وباعهم في السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق بمصر في أيدي الناس منها شيء، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمواشي والأنعام حتى لم يبق دابة ولا ماشية الا احتوى عليها كلها، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والجواري حتى لم يبق بأيدي الناس عبد ولا أمة، وباعهم في السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا ملكه فصاروا جميعهم عبيدا ليوسف.... (١)

إن الفقرة لم تحتوِ على المعاني التي تضمنتها القصة القرآنية عن عدل يوسف ورحمته، بل تجاوزتها، حتى أصبحت عبارة عن صورة فظة لواقع ممارسة السلطة دون التفات منه إلى الشعب ومصالحه، ودون رأفة من جانبه بالانسان الكادح. لذلك يجب أن نؤكد هنا، أنه كان عكس ذلك تماما، فالقصة القرآنية تبين أن حكم يوسف جاء للقضاء على الظلم الاجتماعي الذي كان ساريا بمصر، والذي ذاق مرارته حين زج به في السجن لبضع سنوات بتهمة زور، فالذي يُظلم - بكل علمه السماوي وحكمته وتعقله - لا يَظلم، فكيف له اذن، ان يفعل ذلك وهو يتولى منصب خزائن البلاد، والناس بحاجة ماسة إلى عدله ورأفته بهم؟ وكفى ان نقرأ الآيتين الكريمتين التاليتين لندرك مدى عدل يوسف المرتبط بالعلم والصدق:

«قال اجعلني على خزائن الارض إني حفيظ عليم. وكذلك مكّنا ليوسف في الارض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين»
(٥٥، ٥٦ سورة «يوسف»)

إن كلمة «حفيظ» هنا، تشير إلى تعهد من جانب يوسف للقيام بواجباته كمسؤول عن خزائن مصر بكل أمانة وصدق. ومن جانب آخر، فكلمة «عليم» تشير إلى أن تعهده هذا قائم على علم ومعرفة بحسن التدبير، من حيث تخزين الغلة الفائضة في سنوات الخصب، لسنوات القحط القادمة إلى مصر. وتجدر الاشارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هنا، إلى أن الشخص الأمين الصادق في عمله، لا يمكن إلا ان يكون عادلا في تصريف الأمور. كما أن الشخص المخلص والعالم بحقائق الأشياء وبواطنها، لا يمكن إلا ان يكون عادلا أيضا، فالعدل إذن، مرتبط بالأمانة والصدق والعلم الصحيح. هذه التركيبة، بحد ذاتها، تدعو من يتحلى بها إلى حفظ حقوق الغير، وعدم استغلالهم، بأخذ مالهم أو مواشيهم أو أرضهم ثم استعبادهم بسبب الظرف التاريخي الصعب. وبهذا كله نرى أن إكمال الفراغ في قصة يوسف القرآنية، بالرجوع إلى بعض المبادئ التوراتية، قد أدى فعلا إلى نتيجة عكسية، اما بالنسبة لموضوع استثمار مواهب يوسف وعلمه في خدمة الشعب، بعدل ورحمة (راجع الفصل الثامن، التاسع والخاتمة).

ويجب ان نضيف هنا، أن مسألة إكمال بعض الفراغات في القصة القرآنية لم تقتصر على الأخذ من التوراة من قبل بعض المفسرين المسلمين، بل خضعت احيانا، لخرافات ادخلت على الدين من قِبل آخرين منهم، بحيث تعارضت كل المعارضة مع مبدأ «العقلانية» في الإسلام. وبهذا، فقد تسبب إدخالها في توجيه الانتباه نحو أمور جانبية، لا جدوى منها، بدلا من التوجيه نحو الجوهر. فمثلا، لقد اغرق بعض المفسرين في إحضار حكايات خيالية مفادها، أن يوسف قد تزوج من امرأة العزيز - التي كانت قد راودته عن نفسها في وقت ما - بعد خروجه من السجن. ولا بأس ان نحضر بعضاً منها الآن، كما عرضت في كتاب «الدر المنثور في التفسير المأثور» لجلال الدين السيوطي:

> .... أن أطيفر (العزيز) هلك في تلك الليالي وأن الملك الريان زوج يوسف عليه السلام امرأته راعيل فقال لها حين ادخلت عليه أليس هذا خير مما كنت تريدين فقالت أيها الصديق لا تلمني فإني كنت امرأة كما ترى حسناء... وكان صاحبي لا يأتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي على ما رأيت فيزعمون أنه وجدها عذراء فأصابها فولدت له

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجلين... (وقيل أيضا) تعرضت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام في الطريق حتى مرّ بها فقالت الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيته عبيدا أو جعل العبيد بطاعته ملوكا. فعرفها فتزوجها فوجدها بكرا وكان صاحبها من قبل لا يأتي النساء.... (٢)

إن قصة يوسف القرآنية لا تحتوي على أي اشارة بصدد زواج يوسف من امرأة العزيز بعد سجنه لبضع سنوات. فالقرآن لا يقدم قصة حب تنتهي بالزواج بعد متاعب، كما هو الحال في كثير من القصص الصادرة عن الأدباء وغيرهم، لكنه يعرض مشكلة خروج صنف من النساء (امرأة العزيز على الأخص) عن كل قواعد الفضيلة بسبب سيطرة السلائق الحيوانية عليهن. وعليه، يبين أثر ذلك في فقدانهن لحيائهن وكرامتهن، ومن ثم عدم تورعهن عن اللجوء لأي كيد يصل بهن إلى تحقيق رغباتهن في الشهوة. وبناء على ذلك، قررت القصة الحقائق التالية: أولا، إن الحب شيء غير الجنس، ثانيا، إن إباحية الجنس مرفوضة بشكل قطعي في الإسلام، ثالثا، إن هنالك قواعد أخلاقية تلزم الناس في تعاملهم، أهمها مبادلة الجميل بالجميل، وعدم التعدي على حرمات الصديق. إذن، فالهدف من الحكاية «توجيهي» بكل معنى الكلمة، ويجب أن نذكر هنا، أن قصة يوسف القرآنية قد عنيت بإبراز جمال العلو الروحي والأخلاقي (يوسف هنا) مقابل قبح الإنحدار بالنفس البشرية عند تحكم السلائق الحيوانية فيها (امرأة العزيز). على أنه بالا تمام بزاوية السمو الروحي، تطرقت تلك القصة إلى موضوع «مجاهدة» النفس لتحصينها ضد الإغراء، ومثال على ذلك، فقد بينت أنه، عندما تكاثر إغراء النساء من حول يوسف، وهو صامد يرفض أي دعوة لا اخلاقية من جانب امرأة العزيز، هددته بوضعه في السجن، فتقبل الفكرة، على الرغم من علمه بقسوة حياة السجن وقيودها التي هانت أمام عينيه، مقابل قيود الميل للمرأة، والاستسلام للهوى، مما يبين بشاعة الرضوخ للشهوة وعواقبها في المجال الروحي:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«قال رب السجن احب إليّ مما يدعونني إليه والا
تصرف عني كيدهن اصب إليهن وأكن من الجاهلين»
(٣٣، سورة «يوسف»)

وبالتوكل على الله تعالى، دخل يوسف السجن وقد اشاع العزيز (صاحب السلطة) في البلاد، بأن وضعه في السجن كان نتيجة مراودته لامرأته. وبهذا تجسد الظلم في أكبر مظاهره، فأحدث انقلاباً بالموازين، بريء اتهم زورا وبهتانا وسجن، وامرأة مذنبة بقيت تصول وتجول في المجتمع. ولكن على الرغم من معاني الظلم هذه، فإن تقبل يوسف لفكرة السجن من منطلق الظروف المحيطة به وقتئذ، يدل على قوة ارادة وسعي نحو نيل الجزاء الحسن بتأييد من الله عز وجل، على أن ذلك يؤكد بدوره أن مسؤولية الاعمال تقع على عاتق الانسان في المجال الروحي. ومن هذه الزاوية، نرى أن قصة يوسف القرآنية دخلت موضوع «القضاء والقدر» مبينة أنه اذا عزم الانسان على امر خيّر، ثم توكل على الله تعالى، بلغ غايته في الفوز والنجاح بفضل من رب العالمين. فالله بجلاله قد مكن يوسف في الأرض بعد صبر ومعاناة وطول انتظار في السجن. لكن بالمقابل، تؤكد القصة القرآنية على أن ما يصيب الانسان من مكروه فبما كسبت يداه، فقد بيّن السياق القصصي أن الايام دارت على امرأة العزيز، وامتثلت، بطلب من يوسف، للمحاكمة من قبل فرعون، لإظهار براءته أمام الجميع، واضطرت بالنتيجة وفي جلسة مهينة لها، إلى الاعتراف بما فعلته. وبإبراز هذه الحقائق بالنسبة لمبدأ المسؤولية الفردية، فالقصة تقرر أن الخير كله من عند الله عز وجل، في حين أن الشر والضلال من عمل الانسان الذي ينصت إلى الوساوس الشيطانية. وطبيعي، عندما تتحدث القصة القرآنية عن الخير والشر، ان تتطرق إلى موضوع «الابتلاء» وعلاقته بخلق الانسان. فالله تعالى قد خلق الموت والحياة لكي يبتلي الناس، ومن ثم يجازيهم بموجب أعمالهم يوم الحساب. فإذا عصوا الله تعالى، فعقابهم شديد، لكن لو التزموا بالبر والتقوى والطاعة له وحده، فسوف ينالون الجزاء الحسن في الآخرة، لأن الحياة الاخرى هي دار البقاء.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من كل ما تقدم، نرى أن قصة يوسف القرآنية تحوي في ثناياها كثيراً من لبادئ الروحية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والنفسية، مع العلم أن كل هذه لبادئ ترسم الطريق لنيل السعادة المرجوة. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن التكامل فكري يشكل احد أهم العوامل الرئيسية، في إعطاء ميزة خاصة لتلك القصة بين قصص القرآنية الاخرى. ومن السمات الخاصة بقصة يوسف القرآنية، افتتاحها رؤيا تنبئ بعلو مستقبلي واسع المدى ليوسف، ثم اختتامها بتحقيق الرؤيا في جال الواقع البشري، مع اشتمالها على احداث كثيرة ما بين البداية والنهاية.. عضها عاصف وأليم وموجع بالنسبة ليوسف، وبعضها الآخر خيّر وباعث على لسلام والاستقرار له.. بالنتيجة هدوء بعد عواصف لا يتحملها إلا اولو العزم شدتها وهولها. وبهذا الإطار الذي يحمل مقدمة وأحداثاً كثيرة في الوسط ثم خاتمة، نرى أن القصة اختصت بتتبع كليّ لحياة يوسف، جاء وصفه كالآتي من قبل سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن»:

> إن القصة تعرض شخصية يوسف ـ عليه السلام ـ وهي الشخصية الرئيسية في القصة ـ عرضا كاملا في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك الشخصية... وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها.. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء، وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان. وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات.. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقيا خالصا....(٣)

وعدا عن يوسف، فقد ركزت القصة على شخصيات قريبة منه بحكم النسب، واخرى محيطة به. وطبعا،أولى هذه الشخصيات والده يعقوب عليه السلام، الذي أبرزته القصة في بدايتها الأب الحنون العطوف المحب ليوسف، الخائف عليه من كيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اخوته له، وفي نهايتها الأب الذي عانى معاناة شديدة بسبب ضياع ابنه يوسف، لدرجة فقدانه أو شبه فقدانه بصره. بيد أنه مع عظم الخطب مما جرى له، فقد رُد بصره بالنتيجة، وردت إليه القوة والحياة عندما وضع قميص يوسف على وجهه. إذن، ومثل يوسف، فقد حصل الأب، ثانية، على الاستقرار بعد عواصف هوجاء في بيته وحياته.

ومن الشخصيات الذين تجمعهم صلة الدم بيوسف، أخ له من أمه وأبيه، ثم اخوة عشرة له من أبيه، وهؤلاء الاخوة من الأب يقفون كنماذج للحاسدين، الذين دفع بهم بغضهم لأخيهم بتدبير مكيدة له، ادت في البداية، إلى رميه في قاع البئر. ولكن مع مرور الزمن فقد تابوا واصلحوا، وتغيرت الصورة عنهم بحكم تغير الظروف بنجاة يوسف ثم بعلوٍ كبير له، ولشعورهم بالذنب الذي اقترفوه ضد أخيهم. وفيما عدا ذلك، فهناك شخصيات اخرى في القصة تتضمن العزيز وزوجته، نسوة المدينة، فرعون، صاحب السقاية ثم صاحب الطعام لفرعون. وقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن هؤلاء في المتن. (راجع الفصل الثاني، الثالث، الرابع، الخامس، والسادس).

بناء على كل ما تقدم، نرى أن قصة يوسف غنية بتقديم أنواع من الشخصيات، التي تقف كنماذج متعددة لأبناء البشر، الذين يوجد بينهم الخيِّر الذي يُحتذى به، والشرير الذي يُتعظ منه. إن هذا الثراء في مجال الشخصيات في القصة، إلى جانب المبادئ الأزلية الكامنة وراء تلك الشخصيات، التي تحدثنا عنها سابقا، إضافة إلى الأداء الفني بها كما سيرى القارئ فيما بعد، أضاف الكثير إلى المعرفة الانسانية مثل: الأدب العربي، علم النفس، علم الاجتماع، علم السياسة، علم الحضارة، وعلم الأخلاق. إن كل هذا الثراء الذي تحمله تلك القصة في طياتها يشكل دليلا دامغا على الإعجاز القرآني من حيث المعنى والاسلوب. وهذا امر هام للغاية، لأن إثبات الإعجاز القرآني يمثل الطريق الأساسي لإثبات صحة أو صدق الوحي، علما، أن قصة يوسف ركزت على هذا الموضوع الهامّ للغاية، في بدايتها وفي نهايتها، من خلال الآيات القرآنية التالية:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين» (٣، سورة «يوسف»)

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم اذا اجمعوا امرهم وهم يمكرون، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (١٠٢، ١٠٣، سورة «يوسف»)

ومن الجدير بالذكر، عند هذه النقطة، أنه في الوقت الذي تسخّر فيه أقلام كثيرة معادية للاسلام «للتشكيك» بالقرآن الكريم، من خلال نفي صحة الوحي عنه، تساهم هذه الدراسة في دحض تلك الأقوال بالدليل والبرهان والحجة الدامغة. هناك في عالم الغرب اصرار على ما يطلق عليه احيانا مصطلح «التفتيش عن عدو» باعتبار أن مثل هذا التفتيش هو وسيلة لتعميق الوحدة للجانب الذي ينازل عدوا. وبهذا المفهوم، فقد دخل الغربيون إلى العالم الإسلامي من خلال ثورة مصطفى كمال أتاتورك المعادية للإسلام بعقيدته القرآنية. وقد يكون التفتيش المستقبلي في مجالات متشابهة أو متعمقة كتجربة مصطفى كمال، والتمهيدات واضحة من خلال الدعوة لتعطيل القرآن الكريم. ومن هنا، نأمل ان تساهم دراستنا الحالية في حماية القرآن من التعطيل، ومن ثم حماية العالم الإسلامي من التفكك والانهيار، والذوبان في الاتجاهات العلمانية التي ذهب إليها مصطفى كمال.

تحتوي هذه الدراسة على احد عشر فصلا، إضافة إلى المقدمة والخاتمة، تغطّي تسعة فصول، منها قصة يوسف القرآنية، أما الفصلان الاخيران، فيغطّيان القصة التوراتية من حيث التعريف، ومن حيث اظهار مواطن الشبه والاختلاف بين تلك القصة، وبين القصة القرآنية.

وفي الوقت نفسه، تعنى الخاتمة أيضا، بإتمام المقارنة بين القصتين. وفيما يتعلق بالمصادر، فدراستنا الحالية تستقي معلومات من كثير من المصادر القديمة والحديثة في حقل التفسير القرآني وغيره. كما تعتمد على الاجتهاد الذاتي في كثير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أجزائها، وتعنى عناية خاصة بإبراز أزلية الأفكار القرآنية الواردة في القصة، مؤكدة صلاحية تلك الأفكار لكل زمان ومكان.

فعسى أن يوفقنا الله تعالى في سعينا هذا.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش

١ ـ البيضاوي، والنسفي والخازن وابن عباس، **كتاب مجموعة من التفاسير** (بيروت: دار احياء التراث العربي، لا. ت.)، ص ص. ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

٢ ـ جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور في التفسير المأثور** (بيروت: دار المعرفة، لا. ت.)، ص. ٢٥.

اضافة إلى ما تقدم ذكره عن مسألة زواج يوسف من امرأة العزيز، فقد ورد ما يلي:

> (قيل) اصابت امرأة العزيز بزجاجة فقيل لها لو أتيت يوسف بن يعقوب فسألتيه فاستشارت الناس في ذلك فقالوا لا تفعلي فإنا نخاف عليك قالت كلا إني لا أخاف ممن يخاف الله فدخلت عليه فرأته في ملكه فقالت الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا بطاعته ثم نظرت إلى نفسها فقالت الحمد لله الذي جعل الملوك عبيدا بمعصيته فقضى لها جميع حوائجها ثم تزوجها فوجدها بكرا فقال لها أليس هذا أجمل مما أردت قالت يا نبي الله إني ابتليت فيك بأربع كنتَ أجمل الناس كلهم وكنتُ أنا أجمل أهل زماني وكنت بكرا وكان زوجي غنياً....

المصدر نفسه، ص. ٢٥.

٣ ـ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، المجلد ٤ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩)، ص ص. ١٩٥١ ـ ١٩٥٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

يوسف في بيته: المكيدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن «قصة يوسف عليه السلام مع اخوته» تحمل كثيراً من المستغربات التي تتصل بجوهر النفس البشرية على مدى الأزمنة والأمكنة. فهي تتحدث في كثير من أجزائها عن أنواع شتى من المكائد التي جابهت يوسف في المراحل الأولى من حياته. ومع أن تدبير مكائد تنتهي بعواقب وخيمة لأخٍ من قبل اخوته، امرٌ عجيب، فإن الأعجب من ذلك ان تُحاك مثل هذه المكائد في بيت نبي كريم، لكن يبدو أن هذه الظاهرة تحمل عِبَراً ودروساً للبشرية، فهي تذكّر الانسان بأنه طالما وجدت في وقت ما من التاريخ مكائد في بيت نبي كريم، فإنه لا داعي عندئذ للفزع أو اليأس حين يجابه مكائد مشابهة لِما تمّ تدبيره ضد يوسف من قِبَل اخوته. فالفئة التي تبني قواعد حياتها (ولو لفترة محددة كما كانت الحال مع الاخوة قبل التوبة) على أسس نفعية دنيوية دون اقامة وزن لمسألة الأخلاق، لا يتورع أفرادها عن عمل أي كيد لصالحهم. ولكن هذا الاتجاه يذكّر الانسان بأن حياتنا الدنيوية مبنية على النقص لوجود الشر فيها إلى جانب عنصر الخير وذلك بحكم التوجهات الفكرية والنفسية. على أن كل ذلك يرمي إلى إخراج الانسان من الاعتقاد بوجود «مثالية» مطلقة أو «كمالية» على وجه الأرض إلى عالم الواقع ليعيش وهو يدرك تماما أن حياته لن تكون كلها سعادة ولن تكون كلها شقاء، بل جامعة لكليهما. واذا تكيف مع هذه الفكرة، فلن تهزه المكائد، بل سوف تزيده قوة وهو يجابهها بشجاعة وعلم، مستمدا العون من السماء. والجدير بالذكر، أن ما تحمله قصة يوسف من دروس هو خير مصداق عملي على ذلك.

إن قصة يوسف تحتوي على عدة مشاهد حدثت في أكثر من مكان، وقد تناولت المسرح العائلي في الجزء الأول من تلك المشاهد، حيث جرى التركيز فيها على روابط سماوية دنيوية من خلال الكشف عن رؤيا يوسف، ثم على أمور دنيوية تربط بين التوجهات الذهنية والنفسية من جهة، وبين تدبير الكيد من جهة أخرى، مبيّنة أثر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك على من تمّ التدبير ضده. وبالنسبة للمشهد الأول من القصة، فقد عرض كالتالي:

المشهد الأول

في زاوية بيت من أشرف بيوت أبناء البشر جلس النبي يعقوب عليه السلام مع ابنه يوسف في حلقة حوار مثير للدهشة والعجب.. فالحوار كان يجري بين الأب وابنه الصغير من حيث السن، وليس بينه وبين أولاده الكبار من حيث العمر، مما يشير إلى نضوج مبكر في تفكير يوسف. وما يؤكد ذلك، إبلاغه لوالده عن رؤيا ظهرت له في منامه. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن «الرؤيا» كمصطلح تعنى بتزويد الإنسان، الذي يتحلى بصفاء الروح ونقاء القلب، بأسرار وخفايا متصلة بمجرى حياته. لكن الغريب في أمر يوسف، أن الرؤيا ظهرت له في سن مبكرة، مما يؤكد على أنه كان انسانا غير عادي، ومؤهلاً للنبوة والمستقبل العظيم. أما رؤياه فقد ورد نصها كالآتي في القصة القرآنية:

> «إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين» (٤، سورة «يوسف»)

توحي هذه الآية بأن حديثا مطولا كان يدور بين يوسف وأبيه بدليل استخدام «اذ» للاستئناف في هذا الموضع. ولكن اقتطع منه الجزء الأهم المتعلق بنص الرؤيا المقدمة في إطار رمزي أخاذ، يجمع فيه بين الطبيعة والانسان من حيث الخضوع لله تعالى، خالق السموات والارض وكل ما فيهما. وقد ورد في بعض كتب التفاسير، أن الأحد عشر كوكبا يقفون كرمز لاخوة يوسف في حين أن الشمس والقمر يقفان كرمزين لوالديه. على أن سجود كل هذه الظواهر الطبيعية ليوسف يعني التعظيم له من قبل «كل» أفراد عائلته، لمنزلة «ومكانة» روحية ودنيوية سيحظى بها في وقت لاحق.

ولكن كيف كان رد فعل يعقوب بعد ما فرغ من استماعه لنص رؤيا يوسف بكل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معانيها المشرقة؟ من الواضح أن الأب شعر بخوف على يوسف من اخوته. ففي الوقت الذي انصبّ فيه اهتمام الاخوة على نيل شهرة دنيوية كما يبدو، كان وجود يوسف بتميزه الذهني منذ صغره، يهدد تطلعاتهم تلك. وبما أن الرؤيا تبشر بمستقبل زاهر ليوسف، فمعرفتها من قبل الاخوة كانت لا بد وأن تثير فيهم الحسد نحوه، بكل ما يتولد عن ذلك من شروع بتدبير المكائد ضده. وهذا ما يفسر النهي الصادر عن يعقوب ليوسف بعدم إبلاغ اخوته برؤياه كما ورد بالآية الكريمة التالية:

«قال يا بُنيَّ لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين» (٥، سورة «يوسف»)

في حين أن كلمة «يكيدون» تعني القيام بتدبير شرّ من قبل اخوة يوسف له في حال علمهم بالرؤيا، فإن كلمة «كيدا» تؤكد ذلك مشيرة إلى الإحكام في كيدهم لو حصل. و «الإحكام» كتعبير يعني وضع خطة تضم مراحل عدة، وتُنفذ من خلال أساليب متعددة قد تتراوح بين استخدام اللين واستخدام العنف لتحقيق الهدف، دون اعتبار للشعور الإنساني، أو حتى لقرابة الدم. وهذا ما فعله اخوة يوسف به، والذي ستثبته الأحداث في وقت لاحق. وبما أن مثل ذلك الكيد مؤذٍ جدا بطبيعته، فقد ربطته الآية القرآنية بالشيطان «إن الشيطان للإنسان عدو مبين». فحين يبغض انسان انسانا آخر من منطلق الحسد، يتدخل الشيطان كي يؤجج نار البغض في نفس الحاسد، ويدفعه لفعل أي مكروه ضد المحسود. ولكن مهما واجه الشخص البريء المحسود من ضرر، فالنصر بالنتيجة حليفه، لأن سنن الحياة مبنية على إرساء قواعد الحق ومحق الباطل. والفرج الآتي من السماء يتبع صبر الإنسان على الشدائد والملمات، وهذا ما حصل ليوسف الذي خصّه الله تعالى بالنبوة والمعرفة المتطلبة لتأويل الرؤى فيما بعد، مُتمّماً بذلك نعمته عليه وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أبويه، من قبل، ابراهيم وإسحق، وقد جاء في قوله الكريم:

«وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبل ابراهيم واسحق إن ربك عليم حكيم» (٦، سورة «يوسف»)

وبهذا التعظيم ليوسف من أول المشهد - الذي يلقي الأضواء على حاضره ثم على مستقبله - حتى نهايته، يسدل الستار عنه، ليكشف النقاب في مشهد آخر عما جرى ليوسف بعد الجلسة المذكورة أعلاه مع والده. فالصورة تركز الآن على واقع الحاضر في حياة يوسف، وبذلك، فالقصة تزدهي بانتقال سريع من فترة زمنية لأخرى: من الحاضر إلى المستقبل ثم العودة إلى الحاضر. على أن هذا الانتقال السريع المصطحب بعنصر التشويق، يبرز احد مظاهر الإعجاز في تلك القصة من حيث المعنى والمبنى معا.

المشهد الثاني

وفي غمار بحر التشويق هذا، يتوجه السياق القصصي الآن، لكي يحث الإنسان على ضرورة التأمل والتفكير بما جرى ليوسف من قبل اخوته بقصد الاتعاظ. وبذلك، فقد اجتمع عنصر التشويق بالاضافة إلى عنصري الاثارة الفكرية والوجدانية، مما يشير إلى مظهر آخر من مظاهر الاعجاز القرآني:

«لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين» (٧، سورة «يوسف»)

وما أن يصب اهتمام القارئ أو السامع على القصة، لمعرفة ما سيأتي من أحداث، حتى يكشف السياق عن اجتماع بين الاخوة بصدد التعبير الموحّد عن شعورهم بالتذمر نحو الاب ويوسف واخيه. اذن، وعلى عكس الاجتماع الذي اتخذ طابعا فكريا بين يوسف وابيه، فقد ظهر الاخوة الآن في اجتماع آخر، بطابع سلبي، يوحي بإعداد المكيدة ليوسف، وهم يرددون ما ورد بالآية التالية:

«اذ قالوا ليوسف واخوه أحبّ إلى أبينا منا ونحن عصبة
إن أبانا لفي ضلال مبين» (٨، سورة «يوسف»)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان طابع العدائية، بشكل أو بآخر من قبل الاخوة، يتجلى في استخدامهم لكلمة «عصبة». والعصبة في اللغة تشير إلى الجماعة التي قد تكون مؤلفة من تسعة اشخاص إلى أربعة وأربعين تقريبا. لقد ظن الاخوة، كما يبدو، أن كونهم جماعة يعطيهم الأحقية للاستئثار بحب والدهم الذي من خلاله قد يتمكن احدهم من خلافته بالسيادة، لمنزلته العظيمة بين القوم. ولكن بما أن يوسف بالذات هو الذي نال ثقة والده لتفوقه كما ذكر سابقا، فقد ذهب الاخوة لوصف أبيهم بالضلال، والضلال هنا، لا يعني بأي شكل كان، الانحياز عن الحق - فالاخوة يعلمون أن والدهم نبي - لكنه يعني إعطاء الأفضلية ليوسف وأخيه. على أنهم بهذه النظرة التي تحمل في ثناياها حسدا جارفا لأخويهم، انطلقوا يدبرون مكيدة ضد يوسف بهدف التخلص منه لإفساح المجال لهم للاستئثار بحب والدهم. وكانت أول مرحلة من المكيدة تتضمن ما يلي:

«اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم
وتكونوا من بعده قوما صالحين» (٩، سورة «يوسف»)

إن فكرة القتل، كأول وسيلة للتخلص من يوسف، لفكرة مخيفة إلى حد تهزّ الوجدان هلعا، والفؤاد ذعرا من فداحتها.. لأن القتل المبني على الظلم إثم محرم، كما ورد في قوله الكريم:

«ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق» (١٥١، سورة «الانعام»)(٦)

إن تلك الفكرة وما تحمله من قسوة طبع، تكشف عن مدى الخطر المنبثق عن البغض والحسد في حال استفحالهما، وتنبه في الوقت نفسه، إلى ضرورة الحذر والحيطة في حال وجودهما. وإلى جانب فكرة القتل، التي تمثل الحد الأقصى في عالم المكائد، فقد تقدم الاخوة بفكرة طرح يوسف على الأرض، وهي الفكرة التي تبدو أكثر اعتدالا بالرغم من خطورتها أيضا. ومهما يكن، فسواء تم الاختيار النهائي للفكرة الأولى أو الثانية مع تعديل عليها؛ فالاخوة ظنوا أن سعادتهم لن تتحقق إلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد التخلص من يوسف، لاعتقادهم بأن التوبة ستبرّر، في وقت لاحق، ما فعلوه، ولكن كما يقول سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن»:

> وليست التوبة هكذا. إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلا جاهلا غير ذاكر؛ حتى اذا تذكر ندم وجاشت نفسه بالتوبة. أما التوبة الجاهزة! التوبة التي تعد سلفا قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، فليست بالتوبة، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان! (١)

وعند هذه النقطة، يجب أن نذكر أن وجود اقتراحين يراوحان بين التطرف والاعتدال للتخلص من يوسف يشير إلى نوع من الاختلاف بالرأي بين الاخوة. ومع وجود متطرفين منهم وهم الأكثرية، فقد وجد من هو معتدل يشجب فكرة القتل:

> «قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابة الجُبّ يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين» (١٠، سورة «يوسف»)

فهذا احدهم، ويقال في كتب التفاسير، إنه الأخ الأكبر سنا أو قدرا يتبنى فكرة رمي يوسف، ولكن ليس في الفلاء أو في الصحراء، رغم كل الخطورة الكامنة في هذا العمل، بل يقترح رميه في قاع البئر لإفساح المجال له للعيش عند التقاطه من بعض السيارة لكن دون الشعور بالرضا لفكرة التنفيذ كما يظهر من تعبير (إن كنتم فاعلين) الذي قال بصدده سيد قطب في المصدر السابق، أنه يحمل في طياته:

> روح التشكيك والتثبيط. كأنه يشككهم في أنهم مصرّون على ايقاع الأذى بيوسف. وهو اسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ. ولكن هذا أقل ما يشفي حقدهم؛ ولم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه.... (٢)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع هذه النقطة، ينتهي مشهد الإعداد للمؤامرة لتدخل الأحداث الآن مرحلة التنفيذ، التي انتهت برميه في قاع البئر، كما سيتجلى في المشهد الثالث من هذا الفصل.

المشهد الثالث

يبتدئ المشهد هذا بالآيتين التاليتين:

«قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون. أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون» (١١، ١٢، سورة «يوسف»)

إن أول مشكلة واجهت الاخوة على ما يبدو، هي مشكلة عدم ثقة والدهم بهم، الذي كان يعلم بنواياهم السيئة نحو ابنه يوسف. وعليه، فقد كان طبيعيا ان يوجّه هؤلاء جوهر اهتمامهم نحو نيل تلك الثقة قبل أي شيء آخر. ومن المعلوم أن كسب ثقة شخص بآخر عند فقدانها، قد يتم من خلال العمل الجاد النافع، الذي يحمل معه نية طيبة في حال الجدية، على إعادة التثبيت، بيد أنه عند السعي لاستعادة ثقة مفقودة لهدف وصولي أو انتهازي، لا بد من اللجوء إلى الحيلة. وهنا يتوجه الشخص أو الفئة المعنية بالأمر إلى التودّد المصطنع للشخص المراد كسب ثقته، وذلك عن طريق مخاطبته بالألفاظ الرقيقة، والأسلوب العذب الذي يوهم بالسلامة في النية، لأن مثل هذا الاسلوب قد ينجح فعلا مع الشخص البسيط، الذي لا ينظر للأمور بعمق، ولكن يستصعب نجاحه مع الشخص الحذر الذي يفهم حقائق الأشياء ببصيرته. أما بالنسبة ليعقوب كنبي يتمتع بعلم عظيم، وحس مرهف، ومعرفة لتجارب الحياة، لم يكن سهلاً تقبّله التودّد المفاجئ من قبل أبنائه نحو يوسف، حين أظهروا حرصا شديدا عليه وعلى سلامته وراحته، وطلبوا إرساله معهم في الغد لكي يرتع ويلعب في الصحراء، ويملأ نفسه بهجة وسرورا. وكردٍّ على اتجاههم الجديد، وطلبهم هذا، ورد على لسان يعقوب ما يلي:

«قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأنتم عنه غافلون. قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنّا
اذاً لخاسرون» (١٣، ١٤، سورة «يوسف»)

إن جواب يعقوب على طلب أبنائه بشأن يوسف يدل على عدم ثقته بهم من حيث رعايتهم له، على الرغم من المداهنة نحوه. فيعقوب كما تظهره الآية «١٣» لا يشعر بالراحة والاطمئنان نحو طلبهم بأخذ يوسف معهم إلى الصحراء، وذلك من منطلق خوفه عليه من ذئب يأكله في حال غفلتهم، التي يبدو أنها كانت متوقعة من يعقوب حتى هذه اللحظة. ولكن لنفي فكرة يعقوب هذه، فقد لجأ الاخوة لأسلوب نفسي مؤثر يرمي لإحراج يعقوب والضغط عليه، لنيل المراد، فقالوا لأبيهم لو تمكن الذئب من افتراس يوسف وهم عصبة قوية، فلا يرجى منهم أي خير عندئذ. أو بالأحرى، فقد ربطوا خسارة يوسف، في حال حدوث ذلك، بخسارة سمعتهم. وإزاء ذلك، استسلم لهم الأب الحذر، فالأمر، كما يبدو، خرج هذه المرة عن مقدوره لحكمة سماوية. فماذا حصل بعدئذ؟ هذا ما ستكشف عنه الآية التالية:

«فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب
وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون»
(١٥، سورة «يوسف»)

ومع وصول الأخوة إلى البئر تم الاتفاق النهائي على تنفيذ المخطط برمي يوسف في قاع البئر عند ساعة مظلمة دون الشعور بالانسانية. واسلوب الرمي هذا، فقد جاء وصفه كالتالي في كتاب «تفسير القرآن العظيم» لإبن كثير؛

إن يعقوب عليه السلام لمّا بعثه معهم ضمّه إليه وقبله
ودعا له وذكر السدى وغيره. إنه لم يكن بين إكرامهم له
وبين إظهار الأذى له إلا ان غابوا عن عين أبيه وتواروا
عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه والفعل
من ضرب ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذي
اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلّوه فيه، فكان اذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، واذا تشبث بحافات البئر ضربوه على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة كانت في وسطه.... فقام فوقها.... (٣)

إن هذه الفقرة تعطي صورة حية عن حقيقة الوجوه الحاسدة بعد نيل المراد، مبرزة خطورة التمثيل المتجسد في عالم المكائد. لقد انقلب الإدعاء بالود ليوسف إلى صفعات له، وعاد الوجه الابيض المصطنع إلى اصله، وبرزت الأنياب، وانقلبت الابتسامات إلى حالة من العبوس، وامتدت الأيدي لتضرب يوسف، وتحول بينه وبين الدفاع عن النفس، وتقطع الحبل به بكل غلظة قلب وقسوة فؤاد. ولكن كيف يمكن أن يكون شعوره في تلك اللحظات الرهيبة التي سبقت نزول الوحي عليه للاطمئنان؟ هذا ما يسكت عنه السياق للأحداث. فالقرآن الكريم يقدم الأحداث أحيانا بإيجاز، وذلك لترك المجال للفكر الإنساني للتأمل بما جرى، ولتصور ما يمكن أن يكون قد حدث من معاناة. والإيجاز يشكل عنصرا آخر من عناصر الإعجاز القرآني. ومهما يكن من أمر، فبعد طمأنة يوسف بالنجاة، واللقاء بأخوته في يوم ما، ومحاسبتهم على ما اقترفوه بحقه، دون حسبان منهم لذلك اليوم، انتقل السياق لبيت النبي يعقوب ليكشف عمّا جرى بعد عودة الاخوة إلى البيت:

«وجاؤوا أباهم عشاء يبكون. قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين. وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» (١٦، ١٧، ١٨، سورة «يوسف»)

وهكذا اكتملت التمثيلية.. لقد أعاد اخوة يوسف الأقنعة إلى وجوههم لدى وصولهم إلى البيت، فدخلوا وهم في حالة من البكاء الجماعي.. منظر غريب حقا ومنفر في الوقت نفسه، ويلقي أضواء على نفسية وحركات عصبة الكيد. فهؤلاء لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكتفون بالحديث بصوت واحد، بل يبكون ايضاً بنغمة واحدة بهدف إخفاء معالم مكيدتهم، ونفض أيديهم منها. ومع حركات البكاء المصطنع هذا، تقدم الاخوة نحو يعقوب لتبرير مسألة عدم وجود يوسف معهم. فقالوا له إنه عند ذهابهم للاستباق، وتركهم يوسف عند ملابسهم للحفاظ عليها، أكله الذئب. ولكن بما أن هذا الإدعاء يتناقض تماما مع وعودهم للحفاظ على حياة يوسف من الذئب انطلقوا للقول «وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين» أي وما أنت بمطمئن لقولنا الموجه لك، حتى ولو كان صدقا، لأنك لا تثق بنا ولا تطمئن لكلامنا.. عبارة مقدمة في إطار سلبي بهدف الحصول على نتائج ايجابية. وعند هذه النقطة، تقدم الاخوة لإعطاء الأب قميص يوسف الذي لطخوه بالدم الكذب كدليل لإثبات صحة روايتهم له. وهنا توقف الأخوة عن الكلام منتظرين تعليقا من والدهم على روايتهم. فبماذا تفوّه «قال بل سوّلت لكم انفسكم أمراً فصبر جميل» عبارة بالغة في الحكمة، تظهر حسا من جانبه لما حصل، ومن ثم عدم اقتناعه بالأكذوبة التي اتوا بها، أي أكذوبة الذئب التي غالباً ما تذرعوا بها نتيجة عبارة سابقة صدرت عن يعقوب «واخاف أن يأكله الذئب وانتم عنه غافلون».

إن كلمة «سوّلت» تشير إلى حديث النفس، الأمارة التي تصغي إلى وساوس الشيطان. وعليه، فهي ترتبط بعبارة سابقة ليعقوب «إن الشيطان للانسان عدوّ مبين». وبذكر يعقوب لهذه الكلمة «سوّلت» فقد وضع التبعة على أبنائه مخليا بذلك المسؤولية عن نفسه كأب للأسرة، وإلا لما لجأ للقول «فصبر جميل». لقد وقع ما وقع على الرغم من محاولاته لمنع ذلك، وحسب قدراته كإنسان، فما عليه بعد ذلك إلا التذرع بالصبر، فالصبر مفتاح الفرج. وبذلك فهو يحمل أملا في طياته، مع أن عدم اليأس والتمسك حتى بشعرة أمل، يضيف جمالا للروح، وانشراحا للقلب، وهذا ما يفسر استخدام يعقوب لكلمة «جميل». ولكن بما أن التحلي بالصبر حتى قدوم ساعة النصر يتطلب دعماً من السماء، فقد التمس يعقوب العون والمدد من الله سبحانه وتعالى، فالسماء هي أفضل ملجأ للانسان حين تحيط به الخطوب التي يحس بفاعلها، ولكن يقف وحيدا عاجزا عن فعل أي شيء تجاهها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن هذ الموقف، يثير تعاطف القارئ أو السامع مع يعقوب، فهو يتابع انفعالاته وأحاسيسه بانفعالات وأحاسيس مماثلة. وفي موازاة ذلك، فالقارئ، يشعر بالنفور والغضب من الدور الذي قام به الاخوة كعصبة ضد اخ بريء، لا ذنب له سوى تميّزه بالتفوق والحكمة التي رأوا فيها خطرا على مآربهم. على أن هذه المشاركة بين القارئ وشخصيات القصة، سلبا أم إيجابا، هي مظهر آخر من مظاهر الإعجاز القرآني من حيث الاسلوب القصصي. ومن خلال المشاركة تلك، يلتقي الحاضر بالماضي، وتنشأ وحدة عضوية بين ماض بعيد، وحاضر قريب لتشكل دليلاً على أزلية القرآن، وصلاحيته لكل زمان ومكان بالعبر والدروس المستقاة من قصصه وغيرها.

الدروس والعبر

هذا وبالنسبة للعبر والدروس المستقاة من القصة، حتى هذه النقطة، فهي تتبلور كالآتي: أولاً، ضرورة الحرص في التعامل مع الآخرين وعدم الغفلة من أجل عدم الإنزلاق بمتاهات المكائد، وإن حصل التخفيف من وطأتها. ثانيا، الأخذ بالكيد المبني على الحسد كحقيقة يمكن حدوثها في أي زمان ومكان، واكتساب المعرفة بصدد التخطيط والتنفيذ لهما للوقاية. ثالثا، الحرص من وجود عصبة كيد، والأخذ بوجود العصبة كواقع في أزمنة وأمكنة شتى، علما بأن عصبة اخوة يوسف تشكل «نموذجا» حيا في هذا المضمار.

فيما يتعلق بالنقطة الأولى، ضرورة الحرص في التعامل الفردي من خلال الاحتكاك بالجماعة، فالقصة تضع يعقوب كمثل أعلى في هذا المضمار، على الرغم من استسلامه الاخير لأبنائه عندما سمح ليوسف بالذهاب معهم. وقد فهم يعقوب أولاده إلى حد بعيد، وعرف شعورهم نحو يوسف بالذات. وبذلك، فقد أمر ابنه هذا بكتمان الرؤيا عن اخوته، ولو لم يفعل ذلك، لربما اخذت الأحداث منحى آخر. وبما أن تغلغل الحسد في أعماق النفوس قد يدفع بالإنسان إلى قتل المحسود، فقد ساهم يعقوب بحماية يوسف من هذا المصير، وخصوصا أن فكرة القتل احتلت الصدارة لدى الأخوة كما ذكر سابقا. والجدير بالذكر هنا، أنه على الرغم من توجيه القصة نحوالحرص من الكائدين، فهي تدعو إلى حسن التعامل والتهذيب معهم، وبهذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تضع المسألتين في اطار تكميلي واحد. لذلك نجد يعقوب الذي كان يعلم بنوايا أولاده على يوسف، كيف كان يتحاور معهم برقة وتهذيب بالغ، لكن دون أن يترك مناسبة لإعلامهم بودّ أبوي وأنه يفهمهم جيدا، حتى يضبطوا أو يكبحوا جماحهم نحو إيذاء يوسف قدر المستطاع. واتباعا لهذا المفهوم، فالقصة تبرز يعقوب وهو يشكك بنواياهم إلى نقطة معينة رغم لطفه معهم، وكبت مشاعره حين حصل ما حصل ليوسف.

على أنه فيما يتعلق بالنقطة الثانية، نقطة الكيد من حيث التدبير والتنفيذ، فقد عرضت القصة مخطط الأخوة الرهيب من خلال ربط ذلك بنفوسهم واطماعهم. اما فيما يتعلق بخطوات التنفيذ لهذا الكيد قبل اخذ يوسف وبعده، فقد تمثلت باستخدام العاطفة كآداة للوصول إلى هدفهم الرامي إلى اخذ يوسف، وتبرير اختفائه بعد رميه في البئر. ففي المرحلة الأولى من المخطط، عمد الأخوة إلى التكلّف بشعور وإحساس جميل نحوه في ظل تعابير رقيقة، وضع أولها في إطار استفهامي لإبعاد الشبهة عنهم، والتقريب بينهم وبين يعقوب لكسب ثقته. ولتدعيم موقفهم تذرعوا بصفات ايجابية نحو يوسف، فأظهروا استعدادا للتضحية من اجل رعايته في خطوة ثانية. بيد أنهم عندما تلقوا تشكيكا من يعقوب بنواياهم، اتجهوا في خطوة ثالثة ليؤكدوا له أن عدم التزامهم العهد القاضي برعاية يوسف ينعكس سلباً عليهم وعلى سمعتهم كجماعة قوية. وهنا تظاهروا بالتمسك بمبدأ «الصراحة» كوسيلة اخرى لإخفاء ما يجول في خواطرهم من شرّ، لأن ذلك يبيّن أن للصراحة وجهين: ايجابي في حال الصدق، وسلبي في حال التظاهر بما هو ليس بالباطن.

ولكن عندما دخل مخطط العصبة حيّز التنفيذ النهائي، المتمثل في العزم على إلقاء يوسف في غيابة الجب، واجه الأخوة الآن مسألة كيفية عودتهم دون يوسف بعد إعطاء الوعود بالتكفل برعايته. وإزاء ذلك، كان لا بد لهم من تكثيف التمثيل. وهذا ما يفسر دخولهم المنزل في مرحلة اخيرة، وهم في حالة من البكاء المصطنع بعد تنفيذ المخطط. ومن الطبيعي في مواقف الحزن الحقيقية ان يبكي البعض في حين يكتم البعض الآخر حزنه في قلبه بموجب الطبائع البشرية. اما بكاء الكل مرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واحدة، فهو مجرّد تمثيل دون أدنى شك. وقد بلغت حركاتهم التمثيلية تلك الذروة حين قدّموا لوالدهم قميص يوسف الملطخ بدم كذب كدليل مادي على صدقهم. إذن، فالتخطيط والتنفيذ للمكائد لا يمكن أن يتم دون اللجوء إلى أساليب عديدة من الاحتمالات، بعضها معنوي والآخر مادي، وذلك حتى تكتمل التمثيلية من كل وجه، ويتم الضمان لنجاحها حسب مفهوم عصبة الكيد.

وبالانتقال أخيرا إلى النقطة الثالثة، العصبة من حيث التركيب والخطورة، نرى أن خطورة العصبة تبلغ أقصى حد ممكن، لأنها تدور حول جماعة هدامة ذات تفكير مشترك، ونفسية وتطلعات واهداف ومطامع وحيل واحدة ناتجة عن الحسد وحب الإستئثار بالأشياء (الإستئثار باهتمام يعقوب هنا). إن سيطرة العواطف على تفكير أفراد العصبة بدافع الحسد يفقدهم وازع الضمير، فيستمعون إلى الوساوس الشيطانية وينزلون الضرر بالغير.. ولكن لفترة مؤقتة، تزول بعون السماء للمظلوم، فيبقى عندئذ الباب مفتوحا للعِبر.

ومع وصولنا إلى هذا المنعطف، نرى وجوب العودة ثانية إلى أحداث القصة لاستقاء مزيد من الدروس في مشاهد مقبلة.. وبالعودة قليلاً إلى الوراء، نرى أن المشهد الثالث - في احدى زواياه - ركز على تصوير يوسف وهو يقف على صخرة في قاع البئر، يتلقى وحيا من السماء يحمل بشرى النجاة بين طياته.. فماذا حصل بعد ذلك؟ هذا ما سيشكل موضوعا للبحث في «الفصل الثاني» من هذه الدراسة عن قصة يوسف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش

١ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ١٩٧٣.

٢ـ **المصدر نفسه**، ص. ١٩٧٤.

٣ ـ أبو الفداء اسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، جزء ٢ (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٠)، ص. ٤٧١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

يوسف في بيت العزيز: المراودة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت البئر التي ألقي فيها يوسف تقع على طريق للقوافل، فلما تلقى وحي البشرى بالنجاة، مرّت قافلة من هناك، فأرسل أفرادها واردهم للتزود بالماء من تلك البئر. وعند إلقاء الوارد للدلو، إذا بيوسف يتشبّث به للخروج. ومع أن السياق للأحداث لا يتحدث عن شعور يوسف وقتئذ تبعا للأسلوب القرآني باستخدام «الإيجاز» في مواطنه، إلا أنه يمكننا القول: إن دفاعه عن نفسه كما ذكر سابقا، يبين أنه كان يتوق للخروج إلى عالم النور، عالم الحياة، بدل البقاء في قاع البئر، قاع الحياة، الذي يصارعه الموت فيه. وبذلك، فلا بد وأن خروجه من البئر كان بمثابة بشرى عملية تبعت بشرى الوحي. لكن مقابل ذلك، فالسياق يتحدث عن بشرى للوارد وأصحاب القافلة.. بشرى الحظي بغلام، لكن البشرى هنا، لم تقع لديهم موقعا وجدانيا معنويا، بل وقعت موقعا ماديا بدليل أنهم أسرّوا يوسف كبضاعة لإخفائه عن الأنظار، دون علم من جانبهم بأن الله تعالى على علم بما يفعلون. ثم باعوه بثمن زهيد، دراهم معدودة كما جاء في قوله الكريم:

«وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسرّوه بضاعة والله عليم بما يعملون. وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين» (١٩، ٢٠، سورة «يوسف»)

وبهذا بِيع يوسف كالرقيق من قبل من لا يعرفون للإنسانية معنى ولا قيمة، حيث أن معنى الحياة لديهم يكمن في عد الدراهم. ولكن كيف كان شعور يوسف وهو يفاجأ بهذه الحقيقة المؤلمة بعد مفاجأته الأولى بمكيدة قذفه بالبئر؟ فالسياق هنا، حسب الأسلوب القرآني المتصف بالإيجاز، لا يتحدث عن شعور يوسف وأحاسيسه في هذا الموقف، بل يترك للذهن البشري حبل التأمل والتفكير بما يمكن أن يكون قد جرى، حتى لا يكون التأثير قويا عليه. على أنه بهذا الجو من الغموض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتأثير الوجداني، انتقل السياق الآن للتحدث عمن اشترى يوسف، وعن أحواله في بيته.

المشهد الأول

يظهر المشهد يوسف وهو يحظى بالعيش في بيت آمن من بيوت مصر، بيت رئيس الشرطة، كما ورد في بعض الأعمال المختصة بالقصص. وبالطبع، وتبعا للاهتمام القرآني الجوهري بالأحداث، على أساس أنها تمثل مادة للاتعاظ من وقوع أشياء تتكرر بطريقة أو بأخرى عبر الأزمنة والأمكنة؛ فلم يحدد المدينة التي نزل فيها يوسف بالضبط، ولم يعطِ معلومات عن الحكم السياسي السائد وقتئذ، تاركا الأمر للاستقرار. وبهذا الصدد، ورد ما يلي:

> بِيع يوسف لرئيس الشرطة في مصر ولم يعيّن البلد، الذي كان عاصمة الملك، من البلاد المصرية في ذلك الحين، والأقرب أنه مدينة صان ببلاد الشرقية قرّب بحيرة المنزلة. وذلك أن ملك مصر في ذلك العهد، كان من العمالقة الذين وردوا مصر قبل نزول ابراهيم وكان منهم الملك الذي أكرم مثوى ابراهيم، واعطاه الأموال الكثيرة، وهم الذين شغلوا تاريخ مصر ما بين الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة التي منها احمس الذي طرد العمالقة من مصر(١).

من الواضح أن صاحب البيت، رئيس الشرطة، قد حمل تقديرا ليوسف من منطلق إدراكه لنبوغه وسموّ أخلاقه. وبذلك امر زوجته بإكرام مثواه، والتوسم به خيراً. ولشدة لهفته على يوسف، وأمله وثقته به، فقد راودته فكرة اتخاذه ولداً لهما، كما عبّر عن ذلك لزوجته. وبهذا حظي يوسف بمن يفهم النواحي الإنسانية المتميّزة لديه بعد بيعه من قِبل من لا يرون الحياة، إلا من منظار عد الدراهم: إذن، بعد فترة عناء وتعاسة، كما هو حال الدنيا بالتقلب، فقد نعم يوسف بالاستقرار لفترة ما،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتثبت في المجال العائلي حين خوّله صاحب البيت حق التصرف بشؤون المنزل، رأسا بعده وبعد زوجته. وبالوصول إلى هذا الحد، يقف السياق ليُذكّر الإنسان بأن هذا التمكّن ليوسف قد حصل بالمشيئة الإلهية، وليشير في الوقت نفسه، إلى أن يوسف قد مضى في الطريق لتلقي العلم المختص بتأويل الأحاديث من قِبل الله سبحانه وتعالى، كما ورد في كتابه العزيز:

> «وقال الذي اشتراه من مصر لإمرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكّنا ليوسف في الارض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على امره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٢١، سورة «يوسف»)

وهكذا، فإن تدابير اخوة يوسف، التي ترمي إلى وضعه في قاع الحياة، قد باءت بالفشل، وانقلب الأمر إلى تمكينه فيها، وذلك ليدرك الإنسان أن القوة كلها بيد الله جلّ وعلا. ومهما استنفد أصحاب المكائد من وقت للتخلص من شخص أراد الله له الرفعة والمنزلة العظيمة، لن ينالوا إلا الخسران، فالغلبة لله وحده في كل امر. وهنا تقف الآية «٢١» لتكشف عن جهل الأكثرية من أبناء البشرية لهذه الحقيقة، لأنه لولا هذا الجهل، لما توجّه الكثيرون لتدبير المكائد للغير بدافع الحسد، وحب الاستئثار بالدنيا، والتنعم ببريقها الزائف دون حسبان للسماء. وبهذا الإطار، فالآية تلك، تحمل معها دروساً للبشرية تتجلى في الآية التالية:

> «ولما بلغ أشدَّه آتيناه حكَماً وعِلماً وكذلك نجزي المحسنين» (٢٢، سورة «يوسف»)

وفي تفسيره لهذه الآية الكريمة، يقول سيد قطب:

> فقد أوتي صحة الحكم على الأمور، وأوتي علما بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا، أو بما هو أعم، من العلم بالحياة وأحوالها، فاللفظ عام ويشمل الكثير، وكان ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جزاء إحسانه. إحسانه في الاعتقاد وإحسانه في السلوك(٢).

وبإظهار هذه العلاقات السماوية الدنيوية المختصة بيوسف من حيث تزويده بالمعرفة، ينتهي المشهد الأول من هذا الفصل ليركز السياق الآن على أحداث وقعت له «كإنسان» في بيت رئيس الشرطة الذي تولى رعايته كما ذكر أعلاه.

المشهد الثاني

تبتدئ أحداث هذا المشهد بالآية الكريمة التالية:

«وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب
وقالت هَيْتَ لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه
لا يفلح الظالمون». (٢٣، سورة «يوسف»)

لقد اهتمت كتب التفاسير القرآنية بتلك الآية ـ وما بعدها ـ اهتماما كبيرا، لأنها تدور في محورها حول عشقٍ موجهٍ ليوسف من قبل التي كان هو في بيتها، وهي امرأة العزيز، كما كشف السياق عن ذلك فيما يلي من مشاهد. لقد احبت تلك المرأة يوسف، الذي اتصف بجمال خَلْقي إضافة إلى جماله الخُلُقي، حبا تخطى الإطار النفسي ليخرج إلى الإطار الواقعي بدليل استخدام كلمة «راودته» التي ورد شرحها كالآتي من قبل محمد علي الصابوني:

طلبت امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها، منه أن
يضاجعها، ودعته... أن يواقعها....»(٣).

وفي المنهج نفسه، ورد تفسير الكلمة في كتاب «التفسير الحديث» لمحمد عزة دروزة، حيث ذكر بأنها تعني طلب امرأة العزيز من يوسف «إتيان الفاحشة معها»(٤).

إن ابتداء المشهد هذا، بمراودة امرأة العزيز تلك، يحمل في طياته مفاجأة للقارئ. فاستنادا إلى الآية الكريمة، التي أبرزت صاحب البيت وهو يدعو زوجته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لإكرام مثوى يوسف على أساس امكانية اتخاذه ولدا لهما: كان القارئ يتوقع أن تكون تلك المرأة في سن تكبر فيها يوسف بمراحل، ومن ثم تنظر إليه بعين الأمومة. ولكن كم كان عمرها وعمره في وقت عشقها له؟ فالسياق لأحداث القصة لم يكشف عن هذه النقطة، تاركاً للذهن البشري تقدير ذلك من خلال التفكير والتأمل بالأحداث منذ البداية حتى هذه النقطة. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن سيد قطب قام بمحاولة قيّمة للتوصل إلى التقدير المطلوب عن طريق التحليل الآتي:

> لقد كان يوسف غلاما عندما التقطته السيارة وباعته في مصر. أي أنه كان حوالي الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد.. وفي هذا الوقت كانت هي زوجة... (على أن) خاطر التبني.. لا يرد على النفس عادة إلا حين لا يكون هناك ولد؛ ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد، فلا بد أن تكون قد مضت على زواجها فترة؛ يعلمان فيها أن لا ولد لهما. وعلى كل حال فالمتوقع.. أن تكون (سنها) حينئذ حوالي الثلاثين. ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف في الخامسة والعشرين أو حواليها. وهي السن التي نرجح أن الحادثة وقعت فيها.. نرجحها لأن تصرف المرأة في الحادثة وما بعدها يشير إلى أنها كانت مكتملة جريئة، مالكة لكيدها، متهالكة على فتاها(٥).

وإلى جانب ذلك، يرى سيد قطب أن محنة المراودة، المذكورة اعلاه من جانب امرأة العزيز، لم تكن وليدة ساعتها حيث يقول:

> هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة. إنما تكون هي الدعوة الأخيرة(٦).

ويضيف سيد قطب قائلا: إن تلك الدعوة الأخيرة كانت «سافرة الى الفعل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأخير». ومن هنا، يلاحظ أن حركة إغلاق الأبواب لا تأتي إلا في آخر لحظة.. لحظة تهالك تلك المرأة على يوسف(٧). ولكن كيف كان رد فعل يوسف في هذا الموقف (قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون). لقد استعاذ يوسف بالله تعالى من فعل السوء، وعلى حسب ما اورد أبو السعود فهذه «اشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله للخلاص منه»(٨). هذا، وبحكم إيمانه العظيم وإخلاصه في الطاعة لله تعالى والاعتراف له وحده بالفيض عليه بالرحمة في حياته، حيث نجاه من ظلام الجب، ووضعه في بيت حظي فيه بمعاملة طيبة، وبإكرام من سيده، قال: (إنه ربي أحسن مثواي)، فهنا أخبر تلك المرأة بأنه لن يفلح الذين يتجاوزون الحدود التي وضعها الله تعالى للإنسان، فيعملون مثل ما كانت تدعوه إليه. وتعليقا على النص المختص بموقف يوسف هذا، يقول سيد قطب:

> والنص هنا صريح وقاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبي... فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف لما دعته إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته: «وقالت هيت لك»(٩).

ولكن ومع موقف يوسف في «التأبي»، فسياق الأحداث يظهر في الآية الكريمة التالية ما يلي:

> «ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» ٢٤، سورة «يوسف»)

وفي شرحه لإحدى نواحي تعبير «الهم بالشيء» يقول ابن جرير الطباري في «جامع البيان في تأويل آي القرآن» ومعنى الهم بالشيء في كلام العرب: «حديث المرء نفسه بمواقعة، ما لم يواقع»(١٠). أما بالنسبة لشرح التعبير كما ينسب لامرأة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العزيز «بالتخصيص» فقد ذكر دروزة أنه يعني استعداد «عزمها وإلحاحها عليه»(١١). وفي الإطار نفسه، يقول الصابوني عن معنى التعبير المعني بالأمر هنا «ولقد همّت به»:

> أي همّت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم، عزما جارفا على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف(١٢).

ولكن عندما يأتي تعبير «وهمّ بها» يفسره الصابوني من منظار «نفسي» فيقول: إن التعبير هذا يحمل معه ميلا من يوسف «بالنزول عند رغبتها كحديث نفس دون عزم وقصد مبين» معتمدا بذلك على تفسير الإمام الفخر الرازي حين قال «الهمّ خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع، كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه، لكن دينه يمنعه عنه»(١٣). إن معظم المفسرين يتبنون هذا الموقف في شرح آية «٢٤» فيقولون إنه في الوقت الذي همّت امرأة العزيز بيوسف همّ الفعل، همّ هو بها همّا نفسيا إلى أن رأى برهان ربه فترك الأمر(١٤). ولسيد قطب أيضاً، نظرة تحليلية عن الموقف المتمثل في الآية الكريمة «ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه» حيث يقول:

> هو نهاية موقف طويل من الإغراء، بعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم.. وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة.. ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة؛ لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك. فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحظة الضعف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بينهما ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا... (وهذا التفسير) اقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية، وما كان يوسف سوى بشر... مختار. ومن ثم لم يتجاوز همّه الميل النفسي في لحظة من اللحظات. فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه، بعد لحظة الضعف الطارئة، عاد إلى الاعتصام والتأبي»(١٥).

وبذلك ثبّت الله تعالى يوسف على العفة لصرف المنكر والفجور عنه «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء». وهذه الآية تشكل دليلا قاطعا على أن يوسفَ لم يقع منه همّ فعلي تجاه الإغراء بالرغم من لحظة ضعف نفسي طارئ. ولكن بما أن هذا الإغراء كان فوق طاقته، «فصرفه الله عنه بما منحه من موجبات العفة....»(١٦). فيوسف من عباد الله المخلصين المصطفين للوحي والرسالة، والذين لا يتمكن الشيطان الرجيم من غوايتهم «إنه من عبادنا المخلصين».

وبعد تقرير هذه الحقائق الروحية المختصة بحفظ الله ورعايته ليوسف، يمضي سياق الأحداث لتصوير ما جرى بعد أن رأى يوسف برهان ربه. هنا، ولّى وجهه نحو الباب للإفلات، في الوقت الذي جرت فيه امرأة العزيز خلفه، تجاذبه قميصه وتحدث تمزقا فيه، ولكنه مع ذلك، تمكن من التغلب عليها، فاستبقا الباب، هو يسعى لفتح مغلقه، وهي تعمل على منعه من الإفلات قبل تلبية رغباتها. في هذه اللحظة، وقعت المفاجأة حين الفيا بعلها لدى الباب كما ورد في قوله الكريم:

«واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم» (٢٥، سورة «يوسف»)

إن هذا المشهد بكل مفاجآته مثير للتأمل والتفكير. وإن كلمة «الاستباق» تحمل في طياتها صراعا بين الحق المتمثل بيوسف، والباطل المتمثل بامرأة العزيز، مع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محاولات من تلك المرأة لحق الحق، واستبداله بالباطل. ولا شك أنها كانت تشعر بخيبة أمل من يوسف لعدم تلبيته رغباتها الجنسية. وبسيطرة مثل هذا الإحساس عليها، بما عُرف عنها من قلة حياء أو خجل، فكان من المتوقع، وهي ترى سيدها لدى الباب، أن تسقط اللوم عن نفسها وتلقيه على يوسف. ولكن، لم يكن متوقعا تأجج نار الحقد في قلبها لدرجة إثارة زوجها لوضع يوسف بالسجن أو تعذيبه بشدة. فكيف كان موقف يوسف تجاه قلب الحقائق من جانب امرأة العزيز رأسا على عقب؟ هذا ما تحمله الآية التالية:

> «قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُدّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصه قُدّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين» (٢٦، ٢٧، سورة «يوسف»)

لقد خرجت كلمة الصدق والأمانة من فم يوسف حين قال للعزيز: إن امرأته هي التي راودته عن نفسه. وعند هذه النقطة، يتحدث السياق عن شهادة شاهد في هذا النزاع، دون إعطاء تفصيلات عنه، تاركا بعض الأسئلة في ذهن القارئ، كما يظهر من الفقرة التالية لسيد قطب:

> فأين ومتى ادلى هذا الشاهد بشهادته هذه؟ هل كان مع زوجها (سيدها بتعبير اهل مصر) وشهد الواقعة؟ ام أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر، كما يقع في مثل هذه الأحوال أن يستدعي الرجل كبيرا من اسرة المرأة ويطلعه على ما رأى... هذا وذاك جائز. وهو لا يغير من الأمر شيئا. وقد سمي قوله هذا شهادة... لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه(١٧).

في تقصية للأمر، فقد اتبع الشاهد منهجا بالغا في الدقة والتمحيص. فقال إن كان التمزق في قميص يوسف من الأمام فهي صادقة. وذلك لأن اثر دفاع المرأة عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسها في حال الهجوم عليها يظهر من الأمام، مكان المدافعة. اما في حال حدوث التمزق في قميصه من الخلف، فهذا يعني ان امرأة العزيز كاذبة، لأنه عندما يهرب الرجل من المرأة الراغبة فيه، فمن المتوقع أن تشده من الخلف لإقصائه عن الهروب. وبما أن هذا هو ما حصل ليوسف، فقد ثبت الحق له، والكذب عليها:

«فلما رأى قميصه قدَّ من دُبُر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم. يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنكِ كنتِ من الخاطئين» (٢٨، ٢٩، سورة «يوسف»)

وبهذا الموقف الذي وصل إلى الحد الأقصى من الحساسية، وضع العزيز اللوم على زوجته كإمرأة تسعى نحو المكائد، ثم طلب من يوسف إهمال الأمر وكتمانه، ومن زوجته الاستغفار لذنبها بسبب الخطأ الذي ارتكبته. وبهذا انتهى المشهد الثاني من هذا الفصل.

الدروس والعبر والاعجاز في المعنى

إن هذا الفصل من القصة، بمشهديه، فريد من حيث معانيه بين القصص القرآنية، لأنه يتناول زاوية العلاقة بين يوسف «كإنسان» وبين المرأة، زوجة العزيز، من حيث المشاعر، ومدى القدرة على ضبطها. أما بالنسبة ليوسف، وبحكم انتمائه إلى بيت نبي، وتأهيله للنبوة وقتئذ، إضافة إلى امتيازه بالتفكير العظيم، فقد كان من الطبيعي أن يمتلك القدرة على مقاومة الإغراء إلى اقصى حد ممكن. ولكن يوسف كان «إنسانا» في الوقت نفسه، يمتلك مشاعر إنسانية بحكم الطبيعة البشرية، وبذلك لم يكن من السهل عليه أن لا يشعر بإغراء امرأة العزيز الذي بلغ أوجه حين غلّقت الأبواب وقالت له «هيت لك» او هلم فأقبل، فلو لم يشعر بذلك لما كان إنسانا. إن مسألة الجانب الإنساني في يوسف تشكل أحد المحاور الرئيسية في القصة، وذلك لوضع حد فاصل بين الألوهية والإنسانية، في حين أن كل أبناء البشر يتعرضون للحظات ضعف في اي مجال، مهما علت مرتبتهم الروحية، فالكمال لله تعالى وحده. وإن يوسف الذي امتلك قدرة عظيمة بالتغلب على إغراء المرأة، فقد مرّ بلحظة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضعف، عندما حدثته نفسه بالنزول عند رغبتها، ولكن دون الإقدام على فعل ذلك قطعيا، انطلاقا من الحفظ والرعاية الإلهية له، وتثبيته على العفة. اذن، فالضعف هنا تجسد في حديث النفس، ولكن مقابل ذلك، تجسدت القوة لديه في عدم الإصغاء لحديث نفسه في تلبية رغبات امرأة العزيز الجنسية، والأجواء كلها مهيأة له، إتقاء لغضب الله عزّ وجل والتزاما بحدود الدين. وفي هذا التأرجح بين الضعف النفسي الطارئ، والقوة الروحية، يجد القارئ عِبَرا متطلبة. فإذا مرّ أي انسان بتجربة مشابهة لمحنة يوسف مع امرأة العزيز من حيث الموضوع، فعليه ان يثبت ولا ينزل عند رغبات الإغراء بحجة عدم قدرته على تحمل ذلك. صحيح أن يوسف كان ابن نبي مؤهلاً للنبوة فاستطاع مقاومة الإغراء.. إلا أن الله تعالى لن يترك برحمته وعلمه أيّ انسان مؤمن يتعرض لموقف إغراء فوق ارادته. فسرّ القوة في مجابهة الإغراء، تكمن في الإيمان الذي اذا وصل إلى درجة عظيمة، تتلاشى بالإنسان الشهوات الباطلة، فيرتقي بروحه بدلا من الاستسلام والهبوط بها إلى الذل والمهانة. فموقف يوسف إذن، موقف تسامٍ وتعالٍ، عظيم عن الشهوة.

هذا بالنسبة للعِبَر المستقاة من تصرف يوسف وقت محنته مع امرأة العزيز. ولكن فيما يتعلق بما يمكن ان يستفاد من قصة عشق تلك المرأة ليوسف، فالأمور تتجلى كالآتي: إن هذه السيدة كانت متزوجة من شخص كريم، ذي مركز مرموق، ومعاملته الكريمة ليوسف - الذي حفظ له بدوره الجميل - تشير، في البداية إلى تسامح في طبعه، ولو أن تغييرا في مسلكه اخذ مكانا فيما بعد، كما تظهر الأحداث. المهم هنا، أن تلك المرأة قد تزوجت رجلاً قادراً على ان يوفر لها اسباب الراحة. وبناء على ذلك، يتعجب المرء من وقوع تلك الزوجة بحب شاب قد يصلح إبناً لها، اذا كان تقدير سيد قطب لعمريهما اقرب إلى الحقيقة. بل ويزداد عجبه حين يسمع بشدة إلحاحها عليه لمضاجعتها حين غلّقت الأبواب. إن هذه الخطوة من جانبها تبين أنها فقدت السيطرة على عواطفها لعدم إيمانها، وأنها سقطت بذلك إلى الدرك الأسفل الذي لا صعود منه، فقد أفلت يوسف منها، وكشف أمرها أمام زوجها وغيره، واصبحت مدار الحديث في المجتمع السائد وقتئذ، بالرغم من حيلها الهدامة النابعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن حقد في نفسها على يوسف بعد فشلها. ولكن هذا الفشل هو الذي يقف كعبرة للاتعاظ من قبل مثيلاتها خلال التاريخ. فامرأة العزيز تقف كنموذج لصنف من النساء، وجد ويوجد دائما على الساحة الأرضية. والعِبرة هنا، هو أن على المرأة المتزوجة ان تتحلى بالقناعة، وتلتزم بالوفاء لزوجها، وتتحمل أعباء الزوجية بإخلاص، دون التطلّع لهذا او ذاك، مع ظنٍ منها بالقدرة على إبقاء الأمر في حيز «الكتمان». إن قصة امرأة العزيز حين دعت يوسف لنفسها تدحض هذا الظن، وتؤكد بأن الله تعالى الذي ينهي عن السوء والفحشاء، قادر على كشف محاولات المرأة في الغواية، حتى ولو غلّقت الأبواب في قصر منيع كقصر صاحب الشرطة في مصر. على أن كل هذه المعاني تشكل دليلا على إعجاز القرآن، وصلاحيته بعِبَرِه للحياة العائلية في كل زمان ومكان. فالقرآن هنا يحث على ضرورة إرساء قواعد الفضيلة في المجال العائلي على أساس أن العائلة تشكل نواة المجتمع.

الاعجاز في الاسلوب

فيما يتعلق بالإعجاز من حيث الاسلوب، فالمشهد يحتوي على عناصر قصصية كثيرة مصدرة بمفاجآت ثلاث: أولها، وصول يوسف إلى بيت العزيز وإكرامه، ثانيها، مراودة امرأة العزيز له وما احاط بذلك من احداث، ثالثها، قدوم بعلها غير المتوقع ووقوفه لدى الباب.. مفاجآت ثلاث مليئة بالحركة: إغلاق الأبواب.. رفض يوسف لتلبية رغبات امرأة العزيز الجنسية.. نزاع.. ثم استباق.. شدّ ثوب يوسف من الخلف.. فشل في جذبه.. فتحه للباب.. ثم رؤيته لصاحب البيت هناك. إن كل هذه الحركات تعمل على خلق أجواء من الدهشة في نفس القارئ، الذي يشعر وكأن المشهد أمام عينيه. وعدا عن ذلك، فبعض تلك المفاجآت يبعث الحركة داخل النفس البشرية. وكما ذكرنا سابقا، فقد واجه يوسف لحظات تأرجح بين الضعف والقوة كإنسان، انتهت بحسم الموقف بقوة الإيمان المستمدة من السماء. تلك القوة التي قهرت النزعات الشيطانية الكامنة في نفس امرأة العزيز وثبت الحق، وذلك ليتذكر الإنسان أن الشيطان عدوّ له، لا يجلب إلا الخزي في الدنيا والآخرة. إذن، مقابل الصراع «الواقعي» بين يوسف وزوجة العزيز عند رفضه لها، برز في المشهد صراع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«معنوي» انتهى بقهر السماء لتلك المرأة والنزعة الشيطانية فيها. ومع أن الإيحاءات الشيطانية تكاثرت في نفسها بعد فشلها، لإيهامها بتحقيق نجاح بمواصلة كيدها ضد يوسف، إلا أنها قادت، في الواقع، إلى المزيد من تعقيد الأمور ضدها، حتى اتى وقت وجدت فيه نفسها مجبرة على الإدلاء بكلمة الحق، بصدد ما فعلته نحوه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش

١ ـ عبد الوهاب النجار، **قصص الانبياء** (بيروت: دار الجيل، لا. ت)، ص. ١٥٧.

٢ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ١٩٧٩.

٣ ـ محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، جزء ٢ (الدوحة: مطابع الدوحة الحديثة، ١٩٨١)، ص. ٤٦.

٤ ـ محمد عزة دروزة، **التفسير الحديث**، جزء ٢ (القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاه، لا. ت.)، ص. ١٠٧.

٥ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص ص. ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠.

٦ ـ **المصدر نفسه**، ص. ١٩٨٠.

٧ ـ **المصدر نفسه**، ص. ١٩٨٠.

٨ ـ الصابوني، **المصدر السابق**، ص. ٤٦.

٩ ـ قطب، **المصدر السابق**، ١٩٨١.

١٠ ـ أبو جعفر بن جرير الطبري، **جامع البيان في تاويل آي القرآن**، جزء ١٢ (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٤)، ص. ١٨٣.

١١ ـ دروزة، **المصدر السابق**، ص. ١٠٧.

١٢ ـ الصابوني، **المصدر السابق**، ص. ٤٧.

١٣ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٧.

١٤ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ١٩٨١.

١٥ ـ **المصدر نفسه**، ص ص. ١٩٨١ ـ ١٩٨٢.

١٦ ـ الصابوني، **المصدر السابق**، ص. ٤٨.

١٧ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ١٩٨٢.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث
نساء المدينة: المكيدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن تعقيد الأمور في حياة امرأة العزيز، ازداد بعد علم زوجها بالحقيقة المستندة إلى الشهادة المذكورة سابقا.. حقيقة مروعة لمن سمع بها من سكان قصر العزيز بكل مركزه القيادي. وكقاعدة روحية، فمن الواجب على كل امرأة ان تلتزم بالعفة، وتحافظ على احترامها لنفسها، وأن لا تفعل ما يعرضها للعقاب السماوي ويفقدها مكانتها. واذا كانت تلك القاعدة ملزمة لكل النساء، فكيف يكون وقع الجنوح نحو الضلال من السيدة الثانية او الثالثة في البلاد؟ مثلما كان الحال مع امرأة العزيز؟ ألا ينظر إليها عادة كقدوة بحكم منصب زوجها؟ هل تحطم جدار الهيبة من حولها، وبدا أنه كان وهما؟ هذا ما حصل،فعلاً، لامرأة العزيز.. لقد تحطم جدار هيبتها، عندما تسرب خبرها من القصر إلى خارجه، بواسطة بعض الخدم لديها، وبهذا التسرب، أصبح خبرها هذا حديث الساعة في مصر بين مجموعة من النساء من قومها.

المشهد الاول

يصور هذا المشهد تلك المجموعة من النسوة وهن يتداولن الخبر في وسطهن باستنكار ولوم لامرأة العزيز. وعلى حسب تقدير الإمام ناصر الدين البيضاوي في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» فقد كن «خمسا زوجة الحاجب والساقي والخباز والسجان وصاحب الدواب»(١). وقد انصب اهتمامهن على امور ثلاثة: أولها مراودة امرأة العزيز لفتاها عن نفسه، وثانيها، سبب تلك المراودة، وثالثها، رأيهن فيها:

> «وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنَّا لنراها في ضلال مبين» (٣٠، سورة «يوسف»)

إن أول ما يثير الإنتباه هنا، عدم كف امرأة العزيز عن الطلب لمواقعة غلامها بالرغم مما حصل. فكما يلاحظ وهبة الزحيلي في كتابه «التفسير المنير في العقيدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشريعة والمنهج»، أن كلمة «تراود» تفيد «الاستمرار في الطلب في المستقبل» مما يبين أن محاولاتها ما زالت مستمرة(٢). وإن مفهوم الاستمرارية هذا يشكل ظاهرة خاصة بإمرأة العزيز، وربما بصنف من النساء المتشبّهات بها. ومن المتوقع عادة، ان تلتزم كل امرأة بحدودها وتتوجه نحو العفة والفضيلة. ولكن يبدو أن عدم سير امرأة العزيز على هذا النهج، ينبع من عدم قدرتها على ضبط عواطفها نحو يوسف بأي شكل كان، فحبها الشديد له، سيطر كلياً على عقلها ووجدانها، فأعماها عن الصواب، وإن التصرف السليم يجب أن يكون مبنياً على «الإيمان» وعلى توازن بين العقل والوجدان. لكن تصرف امرأة العزيز المتمثل بالطلب من يوسف لمضاجعتها، ثم الكيد له بسبب فشلها.. ثم العودة لمراودته عن نفسه، قد دعا مجموعة النساء المذكورة أعلاه لتوجيه نقد شديد لها حين قلن «إنّا لنراها في ضلال مبين». باختصار، فالنسوة عبّرن عن احتقار وتصغير من جانبهن لامرأة العزيز بسبب عدم احترامها لنفسها، كزوجة لرجل ذي شأن في مصر. وبهذا، فنظرتهن إلى ضلالها تقع في الإطار «العلماني» لا في «الإطار الديني»، لأن الدين يحرّم طلب امرأة العزيز او غيرها كقانون يجب الالتزام به بكل معنى الكلمة.

هذا ما كان يتداول على الألسن في زاوية من المدينة بين خمس من نسوتها. ولكن هل كان بالإمكان إبقاء امر كهذا في حيّز الكتمان ام أنه كان لا بد من انتشاره؟ بالطبع، وبحكم شغف بعض الطبائع البشرية في تناقل الأخبار، إضافة إلى غرابة الخبر المختص بإمرأة العزيز، فقد كان لا مفر من تسربه التدريجي ليشمل المجتمع كله. وبصدد تناقل الخبر، يقول عبد الكريم الخطيب في كتاب «التفسير القرآني للقرآن»:

> إنها الفضيحة قد اخذت تتحرك بسرعة في المجتمع، وانها اليوم حديث نساء الحاشية، وما حولها، وغدا ستكون حديث البلاد كلها.. فلا بد من تدبير يمسك هذه الفضيحة، او يخفف من انطلاقها، وإلا أفلت الزمام وسادت العاقبة!(٣).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن كلمة «تدبير» تعني وضع خطة طارئة لمواجهة موقف متأزم. ولكن للخطط انواع. فمنها ما يكون مبنيا على قواعد وأسس اخلاقية، لكن مثل تلك الخطط يتطلب اعترافا بالخطأ من جانب من هي معنية بالأمر، ومنها ما يكون منبثقا عن قواعد لا اخلاقية، قواعد المكائد التي من شأنها أن توقع الآخرين في حبائل مصيدة من نوع ما. وهذا ما فعلته امرأة العزيز عندما سمعت بمكرهن، اي كما يقول البيضاوي، عندما سمعت «باغتيابهن» لها[٤]، او «بتشنيعهن عليها والتقليل من قدرها، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها وعشق فتاها» كما ورد في «قصص الأنبياء» للإمام أبي الفداء اسماعيل بن كثير[٥].

المشهد الثاني

لما علمت امرأة العزيز باغتياب النسوة لها، أرسلت تدعوهن إلى بيتها، واعدت لكل واحدة منهن متكأ، أي ما يتكئن عليه من الوسائد. كما ورد في الآية الكريمة الآتية:

«فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن مُتَّكأ
وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما
رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا
إن هذا إلا مَلَك كريم» (٣١، سورة «يوسف»)

حين يجلس الإنسان على كرسي مريح بوسائد، لا بد وأن يسترخي، وفي استرخائه هذا، قد لا تكون يقظته الذهنية بنفس المستوى في حالة عدم الاسترخاء. فلو صدف أنه استرخى وبيده سكينا لقطع الفواكه او غيرها، وحدث امر طارئ أدى إلى انفعال نفسي كبير، لتخبّط، وبحركات لا شعورية غرس السكين بيده بدل غرسها بالفاكهة. وهذا ما حصل للنسوة اللاتي دعين من قِبَل امرأة العزيز. فحين جلسن متكئين، تحمل كل واحدة منهن سكينا لقطع الفواكه او غيرها من الأطعمة، خرج عليهن يوسف بتدبير من امرأة العزيز، فدهشن بجماله الخَلْقي الأخّاذ والمقترن بجمال الخُلُق، وقوة التفكير، اذ أن الجمال الصحيح بالمقاييس البشرية، يحتوي على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سمات مميزة بالخَلق وبالروح، ولجماله المذهل هذا، فقد أعظمنه، وسيطرت عليهن حالة من الذهول. وبالتالي:

> .... لم يعدن يدرين ماذا يمسكن في ايديهن.. وفي حركات لا شعورية اعملن السكاكين في ايديهن، فأصابت منهن ما كان من شأنه أن يصيب الفاكهة منها. فسالت الجروح، ونزفت الدماء!! وعندئذ تنبهن إلى وجودهن.. وقلن حاش لله.. ما هذا بشرا إن هذا إلا مَلَك كريم !!(٦).

بالنسبة لشرح «ما هذا بشرا إن هذا إلا مَلَك كريم» فقد ورد ما يلي في كتاب «التفسير المنير....»:

> ما هذا الذي رأيناه من جنس البشر، وما هو إلا مَلَك كريم من الملائكة تمثل في صورة بشر، والمقصود إثبات الحسن العظيم له؛ لأنه استقر في الطباع أن لا حي أحسن من المَلَك، وأن لا حي أقبح من الشيطان. فلما رأت النساء روعة جمال يوسف شبهنه بالمَلَك، ونفين عنه البشرية، لغرابة جماله وروعة حسنه(٧).

المهم هنا، أن امرأة العزيز قد نجحت فعلا في خطتها لدفع غيرها من النساء نحو الانبهار بيوسف، والميل إليه بقلوبهن من أول مرة. على أن خطتها تلك، كانت في غاية الدهاء. فلو ارادت مثلا أي من تلك النسوة مواصلة نقدها لامرأة العزيز، فقد ترى إحراجا الآن في الإقدام على ذلك. فمجرد انفعالها عند رؤيتها ليوسف، وقطعها بالسكين للحم يدها، وسيل الدماء منها، بدل قطعها للفاكهة سوف يمنعها من مواصلة النقد. إذن، فالسكّين الحادة في الإطار العملي، انتقلت بحدتها إلى الإطار المعنوي، والوجداني، وأصبحت تقف كرمز لتغلّب امرأة العزيز على النساء المدعوات، وهذا ما يفسر جرأتها عندما وقفت بينهن لتقول ما يلي:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«قالت فذالكنّ الذي لمتنّني فيه ولقد راودته عن نفسه
فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ولَيَكونَنْ من
الصاغرين» (٣٢، سورة «يوسف»)

لقد وقفت امرأة العزيز هنا لتتكلم دون اي معارضة ضدها، عامل ساعدها للتحدث معهن بصراحة ولومهن على استنكارهن لما بدر منها تجاه يوسف. فقالت لهن، هذا هو يوسف الجميل في طلعته وأخلاقه، الذي بدر منكن ما بدر نحوه عند رؤيته. فإذا أخذتم بصفاته تلك من أول نظرة، فكيف يكون حال من تراه باستمرار بحكم سكنه في قصر العزيز؟[٨]. وهنا دخلت إلى الزاوية المطلوبة التي تريد الإفصاح عنها بجرأة، وهي اعترافها بمراودتها ليوسف وامتناعه، طلبا للعفة. وعند هذه النقطة، تبيّن أن تفوه امرأة العزيز بالحقيقة تلك، لم يحمل معه نية سليمة كقاعدة، فالاعتراف بالخطيئة قد يقع في إطار التكفير عن الذنب في حال الاستفاقة ويقظة الضمير، او قد يقع في إطار النية بالسير بكيد اكبر، وعندها يكون سلبيا، وهذا هو ما انطبق على امرأة العزيز. فلم يكن تفوهها بالحقيقة إلا وسيلة لاستعراض قوتها في القدرة على الترهيب، فهي الآن وسط جماعة لا تملك إلا مساندتها. وعليه، يمكنها الاستفادة من تلك الجماعة من النسوة بضغطهن على يوسف للنزول عند رغباتها.

وهذا ما يفسر انطلاقها لتهديد يوسف ووضعه أمام خيارين:

اما الاستجابة لمطالبها الجنسية، او وضعه في السجن. بكل ما يلحق ذلك من قهر وإذلال له. ومن الواضح أن تهديدها هذا، جاء من منطلق العشق العلني ليوسف، والممتزج بنار الحقد لعدم استجابته لها، بالرغم من جمالها ومركزها الإجتماعي. ولا شك أن موقفها هذا بعيد كل البعد عن التعقل والحكمة لفقدان التوازن بين العقل والعاطفة، وسيطرة عواطفها الجامحة عليها.. عواطف أفقدتها صفة الحياء بكل ضرورتها للمرأة. وإلى جانب فقدان وازع الضمير لديها، بدت في اقبح صورة ممكنة، فماذا كان موقف يوسف من تهديد تلك المرأة، الذي ما يزال يحمل عنصر الإغراء بين طياته بالرغم من عنفه؟ هذا ما تجيب عليه الآية التالية:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«قال رب السجن أحبّ إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين»
(٣٣، سورة «يوسف»)

في شرح للجزء الأول من هذه الآية، يقول محمد حجازي في «التفسير الواضح»:

قال يوسف: يا رب. السجن أحبّ إليّ مما يدعونني جميعا إليه فتلك بيئة ملوّثة لا أحب المكث فيها ابدا، وإن لي في السجن لراحة بال وهدوء نفس. وهكذا لا يستريح الطيب في البيئة الفاسدة، وهذا اشارة إلى اثر البيئة(٩).

وفي لجوء يوسف لله تعالى في محنته تلك، قال «وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين»، التي ورد شرحها كالتالي في «التفسير المنير....»:

وكنى عن امرأة العزيز في قوله (كيدهن) بخطاب الجمع، إما لتعظيم شأنها في الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. والأولى حمل اللفظ على العموم، اي كيد النساء، وليس كيد امرأة العزيز فقط. وقد اسند الدعوة إلى النساء جميعا: لأنهن زين له مطاوعتها ونصحنه بالاستجابة لرغبتها، وقلن له: إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار. وهو في دعائه هذا آثر المشقة على اللذة؛ لأن العذاب المكروه وهو السجن مع البراءة أهون من الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة....(١٠)

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن اختيار يوسف للسجن أمر يشير إلى غاية الحكمة والتعقل. فالسجن عبارة عن مكان للإقامة الجبرية لإنسان اقترف سوءا، أما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالنسبة ليوسف، فقد أصبح مكانا لعقوبة كل من امتنع عن فعل شرّ، وأصبح مسرحا للتأنيب على عدم قبول فتى للاستجابة لمراودة زوجة رئيس الشرطة في مصر وقتئذ. وذلك ما يدل على انقلاب في الموازين يحمل في طياته انحلالا خلقيا وانحدارا اجتماعيا رهيبا سببه التحرر من القيود الأخلاقية من جانب بعض النساء في مصر. ويجب أن نذكر هنا، أن تحرر أي امرأة، كزوجة العزيز من القيود الأخلاقية قد يفقدها توازنها، ويثير غرائزها الجنسية، التي تدفعها في حال عدم الإستجابة لما تصبو إليه، تدفعها للكيد له، والعمل على قهره، حتى ولو كان تهديداً بوضعه في السجن ظنا منها، أن هذا يدعوه إلى الاستسلام لها بذلة ومسكنة. ولكن قصة يوسف تحذر من مغبة مثل هذا التفكير والتدبير، وتؤكد فشله. لقد فضّل يوسف دخول السجن، والمكوث بين جدرانه لسنوات، على الإستجابة لرغبات المرأة، المتجسدة، بالدرجة الأولى، بإمرأة العزيز، وتوسل لله تعالى لإمداده بالقوة اللازمة للتغلب على الإغراء «وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن».

ومع أن السجن مكان يحدّ من حرية الإنسان في التحرك أو التنقل من جهة لأخرى، فإنه لا يحدّ من حريته في التفكير، ولا يمنعه من التعبد، والإتصال المستمر بالله تعالى من خلال عباداته. وبهذا الإطار، فالسجن يزوّده بأطول وقت ممكن للتفكير والعبادة لقلة الإحتكاك بالمشاغل الدنيوية التي قد تحول دون ذلك احيانا. وعليه، التجأ يوسف يطلب العون من الله تعالى لصرف كيد المرأة عنه، خوفا من الميل إليها، وقد كان ذلك امرا عظيما، لأن الله تعالى صرف عنه كيدها، المدعم بكيد النساء اللاتي ضغطن على يوسف للاستجابة إلى رغبات امرأة العزيز:

«فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم» (٣٤، سورة «يوسف»)

فالله تعالى «هو السميع لدعاء الملتجئين إليه، العليم بأحوالهم وما يصلحهم»(١١).

ومع صمود يوسف وقوة ارادته، يبدو أن امرأة العزيز فقدت الأمل منه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالاستسلام والخنوع لها، والإستجابة لرغباتها، فعزمت على تنفيذ كلمتها بالزجّ به في السجن، من خلال الضغط على زوجها، الذي استجاب لها رغبة منه بحصر القصة:

«ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين» (٣٥، سورة «يوسف»)

إن هذه الآية تؤكد أن العزيز كان على يقين تام ببراءة يوسف من حلال الشواهد الآتية: مسألة قدّ القميص والشهادة المختصة بها، مسألة تقطيع النساء لأيديهن عندما أخذن بجمال يوسف، ثم اعتراف زوجته الأخير أمام النسوة بمراودتها ليوسف واستعصامه. فإذا كان العزيز اول من يعلم بالحقيقة، فلا مفر إذن من إلمام غيره بها، لأن معرفة الآخرين بالقصة، لا بد وان يشكل عاملا في إحراجه كونه مسؤولاً كبيراً. والسياق بالقصة، يشعر القارئ بأن العزيز كان يجابه نقدا لإفساحه المجال لزوجته للتخريب المنطلق من قلة الحياء، وعدم وجود وازع للضمير. وبذلك رأى أنه بحاجة لوضع حدّ للأمور، ولكن للأسف، لم يكن بمنهج عادل، فالعدل يقتضي إنزال العقاب بزوجته لا بزج إنسان بريء في السجن يصارع على كل مستوى من أجل إرساء دعائم الفضيلة، حتى ولو كان الزج به إلى حين نسيان القصة. ويقال إن يوسف مكث في السجن مدة سبع سنوات(١٢).

الدروس والعبر

إن هذا الفصل بمشهديه، يلقي الأضواء على نفوس بعض النساء، وطريقة تفكيرهن وتوجهاتهن، وذلك حين يعرض اجتماع عدد قليل من نساء المدينة في زاوية منها، ثم يعرض، بعد ذلك، تواجد عدد أكبر من النساء في بيت امرأة العزيز بدعوة منها. إن الاجتماع الأول يعطي صورة حية لاجتماعات نسائية مماثلة تأخذ مكانا على مرّ العصور، فهنالك بعض النساء اللاتي يجدن متعة في تكريس الوقت الأكبر من حياتهن لتناقل الأخبار الخاصة، والتعليق عليها، ثم نشرها أينما ذهبن. ومن هنا فاجتماع نسوة المدينة يقف كرمز لاغتياب الآخرين، في وقت تتشابه به النفوس والتطلعات بين من اغتاب ومن اغتيب. اما بالنسبة للاجتماع الثاني، فيدور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في محوره حول الحيلة التي دبرتها امرأة العزيز في بيتها، لبعض النساء، من أجل وضع حد لاغتيابهن لها. وبتلك الحيلة كما رأينا سابقا، كشفت عن تمني كل المدعوات، ليوسف، من أول وهلة. على أن كل ذلك يشير إلى أن الكيد المتمثل في الاغتياب قد يقابل بكيد مثله لوضع حد للأمور. ولكن ذلك يعني بدوره استنزاف الطاقات نحو التخطيط والتنفيذ للشرّ، بدلا من التوجه نحو العمل البنّاء. وهذا ما يحمل في طياته ضررا لأي مجتمع معني بالأمر. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن التوجه نحو الشرّ، وتوسيع دائرته، لا ينجح، بل ينتهي بالفشل حين تدور الدائرة الزمنية وتكشف الأمور على حقيقتها، ومن هذه الزوايا، يحمل الفصل معه عِبَرا ودروسا.

الاعجاز في الاسلوب

هذا من ناحية الوعظ الذي يبرز الإعجاز القرآني في المعنى، اما من ناحية الإعجاز في الاسلوب، فالفصل زاخر بالصور الحية التي تدعو إلى التأمل والتفكير بما يجري من غرائب نابعة عن الشر على مسرح الحياة. إن مشهد دعوة امرأة العزيز لنسوة المدينة بالغ في الغرابة، فهذه قاعة من القصر تتسع لخمسين من النسوة حسب التقديرات، كلهن أتين للترفيه عن النفس، ومسترخيات في جلستهن، دون حسبان لأيّ حيلة تنتظرهن، يتسامرن، وهن يقطّعن الفاكهة او غيرها. ولكن ما أن تمضي لحظات، حتى تصوّب كل العيون على وجه فتى بالغ في الجمال، إنه وجه يوسف، فتبهر تلك العيون ولا تستطيع التطلع لأيّ شيء آخر فتغرس السكاكين بالأيدي بدل الفاكهة وتثخن الجراح، وتستفيق النسوة على آلام في الأيدي. ومع استفاقتهن، يعلو صوت امرأة العزيز باللوم عليهن لاستنكارهن حبها ليوسف، فتشفي غليلها، وترغمهن على التعاضد معها للضغط على يوسف لتلبية رغباتها. فتحصل على معاضدتهن، لكنها تخسر يوسف الذي التجأ إلى السماء، ورمى بهن عرض الحائط، حين فضل سجن الحياة على سجن النفس. وبهذا ظهر في أبهى صورة أخلاقية ممكنة، يقتدى بها في وقت كان يؤهب فيه للنبوة؛ في حين أن امرأة العزيز ظهرت في صورة منكرة، مع من عاضدها، حينئذ. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن توجيه القصة نحو التقدير العظيم لمواقف يوسف من كيد النساء، مقابل تنفيره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الكائدات، دليل آخر من دلائل الإعجاز في الاسلوب القرآني.

ولكن بالعودة إلى مجريات القصة، فالسؤال الذي يراودنا الآن كالتالي: ماذا جرى ليوسف بعد ما زجّ به في السجن؟ هذا ما سوف يتم التركيز عليه في الفصل القادم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش

١ ـ ناصر الدين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي، **انوار التنزيل واسرار التأويل** (دار الفكر، ١٩٨٢)، ص. ٣١٣.

٢ ـ وهبة الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، جزء ١١ (بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩١)، ص. ٢٥٣.

٣ ـ عبد الكريم الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، جزء ١٢ (بيروت: دار الفكر العربي، لا. ت.)، ص. ١٢٦٦.

٤ ـ البيضاوي، **المصدر السابق**، ص. ٣١٣.

٥ ـ ابن كثير، **قصص الأنبياء** (عمان: مكتبة دار الثقافة، ١٩٨٩)، ص. ٢٤١.

٦ ـ الخطيب، **المصدر السابق**، ص ص. ١٢٦٨ ـ ١٢٦٩.

٧ ـ الزحيلي، **المصدر السابق**، ص ص. ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

٨ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٢٥٥.

٩ ـ محمد محمود حجازي، **التفسير الواضح**، جزء ١١ (دار التراث العربي، ١٩٧٨)، ص. ٧٨.

١٠ ـ الزحيلي، **المصدر السابق**، ص. ٢٥٦.

١١ ـ البيضاوي، **المصدر السابق**، ص. ٣١٤.

١٢ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٣١٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع
يوسف في السجن: نشاطه وشعوره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد تزامن دخول يوسف إلى السجن مع دخول شخصين آخرين من خدم الملك الخاص وهما خبازه وساقيه بتهمة محاولة تسميمه، حيث وردت تفصيلاتها كالآتي في «كتاب مجموعة من التفاسير»، البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس:

> إن جماعة من أشراف مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على أن يسما الملك في طعامه وشرابه فاستجابا إلى ذلك ثم إن الساقي ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسمّ الطعام فلما حضر الطعام بين يدي الملك قال الساقي لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم فقال للساقي اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فأبى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما مع يوسف (١).

اذن، فبينما يضم السجن اشخاصا متمردين، او أشخاصا عزفوا عن التمرد في آخر لحظة، لكنهم وضعوا رهن التحقيق، فهو يضم، في الوقت نفسه، أشخاصاً أبرياء تمّ وضعهم فيه بسبب مواقفهم العظيمة ضد الجنوح الأخلاقي، كما كان الحال مع يوسف بكل اخلاقيته وعلمه. وبهذا الإطار، فالسجن كان ملتقى للتناقض.

المشهد الأول

يبتدئ هذا المشهد بخطاب موجه ليوسف من قِبَل الخبّاز والساقي، لتأويل رؤى ظهرت لهما في منامهما، كما يتجلى من الآية الكريمة التالية:

> «ودخل معه السجن فَتَيان قال أحدهما إني أراني أعصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا
تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين»
(٣٦، سورة «يوسف»)

تكشف هذه الآية عن علم يوسف في تفسير الرؤى، وسعي حثيث من جانبه للاستفادة من معرفته في هذا الصدد. والجدير ذكره هنا، أن معرفته تلك، كانت متوقعة في هذه المرحلة من حياته. فالقصة التي افتتحت برؤيا يوسف التي كانت تنبىء بمستقبل روحي ودنيوي عظيم له، تضمنت ايضا آية «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث». إذن، كان دخول يوسف السجن الذي، جعله الله تطهيرا له من الميل للمرأة، قد أصبح المرتكز الأول للشهرة الروحية[٢]، ففيه بدأ بالتبليغ إضافة إلى تأويل الرؤى. على أنه بالنسبة لِما رآه كل من الساقي والخباز، كما ورد بالآية الكريمة، فمن الواضح بأن الرؤى هنا تتركز على الحياة الخاصة لكل منهما، مما يعني بأن ما يراه الإنسان في منامه قد يدور في بعض الأحيان حول أحداث تخصه في حاضره وفي مستقبله. وقد قال الساقي «إني أراني أعصر الخمر»، أي كما ورد في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

يعني عنبا... وقيل الخمر العنب بلغة عمان وذلك أنه قال
إني رأيت في المنام كأني في بستان واذا فيه أصل حبلة
وعليها ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كأس الملك في
يدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه[٣].

أما الخباز فقال «إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه»، أي:

إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع
الأطعمة فإذا سباع الطير تنهش منها[٤].

فكيف كان رد فعل يوسف عند سماعه لما جاء به الفتيان، هل تقدم رأسا إلى تأويل ما رأياه؟ام أنه تأخر بالردّ لهدف جليل؟

«قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يأتيكما ذلكما مما علّمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون» (٣٧، سورة «يوسف»)

تبين هذه الآية الكريمة أن يوسف لم يذهب رأسا إلى تأويل الأحلام كما طلب منه لحكمة تتمثل كالآتي: إن حرص الساقي والخباز على الاستماع لتأويل ما رأياه سوف يلزمهما بالاستماع إلى ما سيقوله يوسف قبل تحقيق هدفهما. وفي هذه المرحلة التي دخل فيها يوسف إلى طور النبوة، فقد فتح له أول باب للتبليغ.. مهمة صعبة تتطلب قبل أي شيء آخر، إثبات نبوته بالدلائل والبراهين بقصد تصديقه. وبما أنه حظي بمعرفة سماوية بصدد مأكل الناس، فقد قال لهما إنه لا يأتيهما شيء من الطعام إلا وأخبرهما بإظهار كنهه وكيفيته قبل حصولهما عليه. وبذلك، بيّن لهما أنه مدعم بمعجزة من السماء، فإذا تمكّن من إعطائهما معلومات دقيقة عن ماهية الطعام وكيفيته، تكون قدرته على تأويل الرؤى ثابتة. وبهذا المنهج، كان حديثه عن معجزته بالإخبار عن الغيوب، قد فتح الباب للحصول على ثقتهما به كنبي يبلّغ رسالة ربه أولا، ويفسّر الرؤى ثانيا.

وبالحديث عن معجزته كنبيّ، مضى يوسف في خطوة اخرى للكشف عن الأسباب التي دعته لعدم الإلتفات الكلي إلى ملة القوم. فهؤلاء لم يؤمنوا بالله تعالى، ولا باليوم الآخر. ولكن بما أن يوسف كان على التوحيد والإيمان الصادق، فكان لا بد له من الاعراض عنهم، وعدم موافقتهم على ما كانوا عليه. على أنه بموقفه هذا بيّن لهما أن قواعد الدين الأساسية قائمة على الإيمان بالله تعالى وحده، إضافة إلى الإيمان باليوم الآخر. وبوصوله إلى هذه النقطة، توجه يوسف لإظهار انتمائه إلى بيت النبوة، بغية الحصول على مزيد من الثقة به، وعلى أكبر قسط من الإنتباه إلى ما سوف يبلغهما به:

«واتَّبعتُ ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون» (٣٨، سورة «يوسف»)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بدأ يوسف هنا بتعريف صفات الأنبياء، على أساس أنهم يشكلون مثلا أعلى يحتذى به. فقد كان لإبراهيم وإسحق ويعقوب شهرة عظيمة بين الناس، إضافة إلى منزلتهم الروحية العظيمة. وبالعلم الذي تلقوه من السماء، وبالدلائل والبراهين التي رأوها في الوجود لإثبات وحدانية الله تعالى، فما كان لهم أن يشركوا بالله من شيء. أي أنهم التزموا بالتوحيد، وعدم الشرك بالله، وهذا فضل من الله تعالى عليهم كأنبياء وعلى الناس أجمعين، لكن هذه النعمة العظيمة لم تلق تقديرا من الكثيرين من أبناء البشر، الذين توجهوا إلى الشرك بالله تعالى بدل تقديم الطاعة له وحده. إن حديث يوسف للفتيان هنا يبيّن أن التوحيد يمثل النقطة الأساسية في الدين، التي على الرغم من أهميتها بالنسبة لحياة الفرد والجماعة الإنسانية، لا تتبع من قِبَل من لا يستطيعون التمييز بين الحق والباطل. وما أن فرغ يوسف من لومه غالبية الناس لجحودهم بفضل الله تعالى، الواحد الأحد، حتى توجه الآن للفتيان بالسؤال الآتي:

«يا صاحبيّ السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهّار» (٣٩، سورة «يوسف»)

إن توجه يوسف للفتيان بهذا السؤال يظهر التدرج المنطقي في اسلوبه بالتبليغ، ويحمل معه أيضا، محاولة لإثارة التفكير لديهما بعد تقرير للتوحيد، وفيه يبلغهم بما يلي:

إن هذه الأصنام التي تعبدونها ذليلة مقهورة اذا أراد الانسان كسرها وإهانتها قدر عليه والله هو الواحد في ملكه القهار لعباده الذي لا يغلبه شيء وهو الغالب لكل شيء سبحانه(٥).

إذن، لقد بين لهم يوسف هنا، أن لا وزن ولا قيمة للآلهة التي يعبدونها، فكل شيء يخضع للمشيئة أو الارادة الإلهية. وللتأكيد نفسه بصدد زيف آلهتهم وعدم جدواها القطعي، استأنف يوسف قوله للفتيان، وغيرهما ممن كانوا في السجن:

«ما تعبدون من دونه إلا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٤٠، سورة «يوسف»)

إن ما تعبدون من دون الله ليس إلا أسماء أطلقتم عليها أنتم وآباؤكم بلا حجة ولا برهان ولا بأمر من الله تعالى، فأصبحتم وكأنكم تعبدون أسماء جوفاء مجردة من كل فعالية أو قوة، وتلك الآلهة لا تنفع ولا تضر ولا تجيب دعاء المحتاج وهي مرفوضة، قطعاً، في المجال الروحي. وعند هذه النقطة، أخبرهم يوسف أن الحكم في أمر العباد لله وحده، فهو الخالق للكون وما فيه، وكل شيء خاضع له، وبذلك، فهو وحده المستحق للعبادة، وليست تلك الأوثان التي سموها آلهة. إن عبادة الله تعالى هي الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يستطيعون أن يميزوا بين ما هو معوجّ وبين ما هو قويم أو صحيح. ومن الواضح هنا، أن يوسف قد تحدث معهم باسلوب قائم على العقلانية، وقوة الإقناع. وقد جاء وصفه كالآتي في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

بيّن لهم أولا رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة على طريق الخطابة ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها لا تستحق الإلهية فان استحقاق العبادة إما بالذات وإما بالغير وكلا القسمين منتف عنها ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» فيخبطون في جهالاتهم(٦).

بإظهار تلك الصلة بين الإيمان والعقل، أصبح الوقت مناسبا لكي يتقدم يوسف بتفسير ما رأياه الفتيان، بموجب طلب سابق منهما، كما ذكر سابقا. وهنا يظهره السياق وهو يقول لهما بأسلوبه الودي:

«يا صاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربَّه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان» (٤١، سورة «يوسف»)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أي يا صاحبيّ في السجن، إن الساقي منكما سوف يحظى بالخروج من هذا المكان ويعود إلى وظيفته السابقة في سقاية سيده الملك خمرا، بيد أنه فيما يختص بالخباز، فسوف يخرج أيضا من السجن، ولكن مع صدور أمر بصلبه. وبالوصول إلى هذا الحد، اخبرهما عن إتمامه لتفسير ما رأياه مع تأكيد لهما بأن حكم الله تعالى وجب عليهما، وهو، بلا محالة، واقع، سواء صدقا ام كذبا به. وبمناسبة تركيز القصة على موضوع الرؤى، فيجب أن نذكر أن الرؤيا الصحيحة تنسب عادة إلى الإنسان المؤمن، وفيها يقول الرسول (صلعم) «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة». وقال، «لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له»(٧). أما الساقي والخباز، فلم يكونا مؤمنين، بدليل أن يوسف قام بتبليغهما بأهم قواعد الدين كما ذكر أعلاه، ولكن يفترض بأن رؤيتهما لأشياء صحيحة يمكن ان تفسر على اساس أنها وردت لإظهار الحق أمامهما. فالشخص الذي يرى دلائل في حياته الخاصة، قد يسرع إلى تقبل الموعظة والإرشاد، إلا في حال تغلغل الكفر في صدره، والجهل في تفكيره. ويحسن بنا، أن نذكر هنا، أن موضوع الرؤى وأنواعها قد شغل الفقهاء وأهل العلم من المسلمين لفترة طويلة. وهذا ابن خلدون مثلا يقول في مقدمته:

> «الرؤى ثلاث: رؤيا من الله؛ ورؤيا من المَلَك؛ ورؤيا من الشيطان». فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر إلى تأويل؛ والتي من المَلَك هي الرؤيا الصادقة تفتقر إلى التعبير؛ والرؤيا التي من الشيطان هي الاضغاث(٨).

وبهذا التقسيم، فإن رؤيا كل من الساقي والخباز تصنف تحت النوع الثاني من الرؤى بموجب افتقارها إلى تأويل.

ولكن بالعودة مرة اخرى إلى قصة يوسف، فماذا جرى بعد تأويل يوسف لرؤيا كل من الساقي والخباز؟ هذا ما تحمله الآية الكريمة التالية:

«وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين» (٤٢، سورة «يوسف»)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يظهر السياق هنا، ساقي الملك الذي بشره يوسف بالخروج من السجن «للذي ظن» «يعني علم وتحقق فالظن بمعنى العلم» وهو في طريقه الفعلي للمغادرة[٩]. في هذا الوقت، وقف يوسف معه وهو يقول له «اذكرني عند ربك». إن طلب يوسف هذا مثير للتأمل والتفكير. فكلمة «اذكرني» تكشف عن ضيق من جانبه لإهماله. صحيح أنه فضل سجن الجدران على الرضوخ للنزعات النفسية، إلا أنه بحكم براءته، ظن بأن اقامته في السجن لن تكون طويلة، لكنّه ظنّ تناقض مع واقعه، وإلا لما طلب من الساقي أن يتحدث عن حاله عند سيده، وهو الملك الأكبر. فإذا كان وضعه بالسجن منذ البداية يشكل ظلما اجتماعيا، بالرغم من رضاه وقتئذ، فإن الإطالة في سجنه، وعدم السؤال عنه لظلم أكبر، وحين يأتي السياق بتعبير «اذكرني عند ربك»، يلفت انتباه الإنسان إلى تفاقم الظلم، احيانا، بحق بريء.

ولكن هل بادر الساقي إلى تنفيذ رغبة يوسف أمام الملك بعد أن عاد إلى وظيفته الأصلية في القصر؟ أم أنه نسي ما أوصاه به، في خضم الحياة وملهياتها؟ من الجليّ، أن تيار الحياة جذبه، فنسي المبادئ الروحية التي استمع إليها من قبل يوسف وهو في السجن، ونسي المبادئ الأخلاقية النابعة من القوانين الروحية، كما نسي، مع كل ذلك، أمر يوسف إلى حين. وهذا ما يفسره التعبير القرآني «فأنساه الشيطان ذكر ربه» أي أن الشيطان، الذي يزين الدنيا ومباهجها ومتاعها للإنسان، أنساه، لفترة، ذكر قضية يوسف، ومأساته في السجن، أمام الملك[١٠]. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن القرآن الكريم يركز مرارا وتكرارا على دور الشيطان الرجيم في إبعاد الكثيرين عن الدين القويم، ويحذر من مغبة ذلك:

> «استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله» (١٩، سورة «المجادلة ٥٨»).

وانطلاقا من عدم إثارة قضية يوسف أمام الملك، فقد بقي بين جدران السجن لبضع سنين. وفي تقدير معظم المفسرين أن «البضع» في هذه الآية، تشمل سبع سنوات. قال وهب:

> أصاب أيوب البلاء سبع سنوات وترك يوسف في السجن سبع سنوات[١١].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبهذا يتشابه الأنبياء في مواجهة الشدائد والصبر على المكروه والظلم الاجتماعي.

الدروس والعبر

بعد هذا العرض للأحداث القصصية، نذكر أن هذا الفصل الذي يحتوي على مشهد واحد، يعنى بتصوير السجن.. دخلاؤه من أبرياء ومتهمين، مشاكلهم، مخاوفهم، وحاجتهم للالتفاف حول شخص قوي، لطيف، يحاكيهم بالمنطق. لقد كان يوسف هو الشخص القوي بإيمانه، بعلمه السماوي، بأخلاقه، وبأسلوبه، فاستطاع أن يجمع من كان حوله، ويحاول بكل جهده لإصلاحهم من خلال رسالته. وفي سعيه هذا، كان من الطبيعي أن يبدأ بدعوتهم لعبادة الله تعالى وحده، لا شريك له، تلك العبادة التي تطهر النفوس، وتنير الأفكار، وتجلب الطمأنينة إلى القلوب، وتصقل الشخصيات. وبهذا المفهوم تفتح الأبواب للسجناء للتغيير والتوجه نحو الخير، ولكن لو استوعبوا الدرس، وعملوا به. فالتغيير إذن، مشترط بمدى تقبلهم للمبادئ السماوية ومدى استعدادهم للالتزام بها. ومهما يكن، فإن نشاط يوسف بالسجن يبيّن أنه حتى في مثل هذا المكان المغلق، يمكن للإنسان أن يقوم بمحاولة إصلاحية. صحيح أن يوسف كان نبيا مكلفا بالتبليغ، وله مكانته الروحية الخاصة بحكم ذلك، ولو حصل أن زجّ بإنسان متميز بعلمه واخلاقه دون ذنب اقترفه، كما حدث ليوسف، فالقصة القرآنية توجه نحو ضرورة استغلال علمه لإصلاح النفوس المعوجّة قدر المستطاع. ومن الجدير بالذكر هنا، أن الساقي والخباز أظهرا شغفا للاستفادة من معرفة يوسف في مجال تفسير الرؤى في وقت تملكهما الخوف مما قد يحدث لهما، لأن مشكلتهما كانت مع الحاكم الأعلى في البلاد، لذلك، لا بد وأن البريء منهما، أي الساقي، كان خائفا من إلصاق تهمة إدخال السم في شراب الملك، خصوصا، وأنه تقبل الفكرة بالبداية، ولم ينبذها، إلا بعد ان أدرك خطورتها في آخر لحظة. وفي الوقت نفسه، لا بد وأن المتهم الحقيقي، أي الخباز، كان خائفا من العقاب بحكم وضعه للسم في طعام الملك لقاء رشوة من بعض أعيان البلاد وقتئذ، تقبلها في لحظات ضعف، وفقدان لوازع الضمير. المهم في الأمر هنا، أنه بعد خروج الساقي والخباز من السجن، وصلب الأخير منهما، لم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتحدث القصة عن أيّ جنوح من جانب الساقي، نحو فعل الشرّ، كنتيجة للطمع بالمال. ولكن ما يؤخذ عليه حقا، هو انشغاله في الحياة، ونسيانه إنساناً بريئاً، مظلوماً، كرس وقتا كبيرا لإعطائه دروسا بالدين والأخلاق.. نسيها أيضا، لفترة، بسبب استحواذ الشيطان عليه.

إن القصة تبين، في أحد جوانبها، أن من يدخل السجن بتهمة فعلية، أو بمحاولة فعل الشر ويتراجع، كيف يخرج بسهولة، في حين يذكر أن الذي يزجّ به لامتناعه عن السير في طريق الغواية، كما كان الحال مع يوسف، فقد يُنسى لوقت طويل، مما يدفع به للطلب من هذا أو ذاك للكشف عن قضيته. ويجب أن نبيّن هنا أنه مع رغبة يوسف بالدخول إلى السجن، ومع القوة التي امتلكها، والنشاط في التبليغ، وتأويل الرؤى، كان انساناً يشعر بالمرارة لعدم وجود من يعطف على حاله، ويخرجه من بين الجدران المغلقة. إن طلبه من الساقي بشرح قضيته للملك، يحزن القارئ حقا.. ولكن مثل هذا الحزن يزول بعد إدراكه بأن لو عمّ ظلام في حياة إنسان بريء نتيجة لخبث وكيد البعض له، فلا بد وأن يستبدل، في النهاية، هذا الظلام بالنور. والرحمة الإلهية موجودة دائما لإنصاف المظلومين، وتبديد خوفهم، وإعلاء شأنهم بعد طول معاناة وصبر. وقد تمّ الإفراج عن يوسف بعد سجن دام سبع سنوات، ولكن كيف حصل ذلك؟ هذا ما سيكشف عنه في الفصل القادم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش

١ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤٠٥.

٢ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٠٥.

٣ـ **المصدر نفسه**، ص ص. ٤٠٥ـ٤٠٦.

٤ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٠٦.

٥ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٠٩.

٦ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٠٩.

٧ـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **المقدمة**، جزء ٣ (القاهرة: لجنة البيان العربي، لا. ت.)، ص. ١٠٨١.

٨ـ **المصدر نفسه**، ص ص. ١٠٨٣ـ١٠٨٤.

والجدير بالذكر هنا، أن موضوع الرؤى والأحلام لاقى اهتماما من الإمام أبي حامد الغزالي في كتابه «احياء علوم الدين». راجع أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **احياء علوم الدين**، جزء ٤ (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، لا. ت.)، ص ص. ٥٠٤ـ٥١١.

بالإضافة إلى ذلك، فبصدد الإهتمام بعلم الرؤى والأحلام يقول ابن خلدون:

> ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف. وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوانين، وتناقلها الناس لهذا العهد. وألف الكرماني فيه من بعده. ثم ألف المتكلمون المتأخرون واكثروا. والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل الممتع وغيره، وكتاب الإشارة للسالمي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصدر السابق، ص. ١٠٨٤.

٩ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤١٠.

١٠ ـ ان بعض المفسرين يعتقدون أن العبارة القرآنية «فانساه الشيطان ذكر ربه»، تنسب ليوسف نفسه. فقد ورد في «كتاب مجموعة من التفاسير» ما يلي:

«فانسى (الشيطان) يوسف ذكر الله حين وكّل امره إلى غيره».

المصدر نفسه، ص. ٤١٠.

ولكن معظم المفسرين يأخذون بالتفسير الأول، وهو نسبة النسيان إلى الساقي، كما ورد الشرح في سياق الفصل.

المصدر نفسه، ص. ٤١٠.

١١ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤١١.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

خروج يوسف من السجن: علم التعبير والتبرئة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن خلاص يوسف من السجن بعد طول نسيان من المسؤولين، أتى من عند الله تعالى، الذي يفيض برحمته على كل مظلوم وقع فريسة الكيد الخبيث. فالله جلّ وعلا يبطل كيد أبناء البشر بعلم لا يحدّه شيء، وحكمة فائقة، وتدبير تام من حيث الإحكام. وعندما يتقهقر الكيد البشري أمام الكيد الإلهي، يرى الشخص منا ضحالة هذا الكيد، وتفاهة وسخف وسطحية المدبرين له، الذين دفعهم غرورهم، وشعورهم بقوة زائفة إلى إلحاق المكر السيء بالأبرياء. إن الكيد البشري محدود وخاضع للشر، في حين أن الكيد الإلهي شمولي ونابع عن علم وحكمة وعدل مطلق، لذلك فهو يحدث دويا هائلا عند حصوله، يرتفع من خلاله إنسان صابر مظلوم إلى الأعالي، وتهوي به عصبة إلى الحضيض مهما بلغت مكانة افرادها. ومن هنا يتمّ النصر للشخص المدعم من الله، الواحد الأحد، على الجماعة، وذلك ليتذكر الإنسان أن القوة كلها بيد الله تعالى، الذي يعدل الموازين بقدرته عند إحداث التواء بها من قبل بعض المتوجهين للشر:

«ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» (٣٠، سورة «الانفال ٨»).

«ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله» (٤٣، سورة «فاطر ٣٥»).

«كتب الله لأغلبن انا ورسلي إن الله قوي عزيز» (٣١، سورة «المجادلة ٥٨»).

المشهد الأول

يبتدئ المشهد الأول بالتركيز على الملك (فرعون مصر) وهو في حالة من الاضطراب والخوف من جهة، والرجاء من جهة أخرى.. قلق من رؤيا له.. وتطلع بشغف إلى من يستطيع تأويلها له. ذلك، لأن تلك الرؤيا تحمل في معناها العام قهر الضعيف لما هو قوي:

«وقال الملك اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات يا أيها الملأ افتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون» (٤٣، سورة «يوسف»)

والواضح من كلام الملك أن تفسير الرؤى كعلم، لم يكن شائعا في مصر وقتئذ، بدليل أن الملك الذي طلب من الملأ - الكهنة والسحرة والمنجمين - أن يخبروه عن تأويل رؤياه، قال «إن كنتم للرؤيا تعبرون» ويعني بذلك:

إن كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير المختص بتفسير الرؤيا، وسمي هذا العلم تعبيرا لأن المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها، وهذا اخص من التأويل لأن التأويل يقال فيه وفي غيره(١).

على أنه فيما يختص بردِّهم، فكان كالتالي:

«قالوا أضغاث احلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» (٤٤، سورة «يوسف»).

إن أول ما يلفت نظر القارئ في ردِّهم، تصنيف رؤيا الملِك في باب أضغاث الأحلام، أي المنامات غير الصحيحة، اذ يوجد في عالم الرؤى ما يسمى بالرؤيا الصالحة، وما يدعى بأضغاث احلام. فالأخيرة يصفها ابن خلدون في «مقدمته» كصور «في الخيال في حالة النوم» أو كصور موجودة «في الحافظة التي كان الخيال اودعها إياها في اليقظة»، في حين أنه يصف الرؤيا الصالحة كالصور المنزلة «من الروح العقلي المدرك»(٢). من هذا التقرير، يبدو جليا أن العلماء والحكماء في البلاد، قد قصروا في تصنيف رؤيا الملك، فوضعوها تحت باب المنامات الباطلة، بينما الأحداث المقبلة تظهرها ضمن المنامات الصادقة. وقد اعترفوا، في خطوة أخرى، بقصور علمهم بصدد تأويل الأحلام «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين».

إذن، حتى هذه النقطة، فالأحداث تبلورت كالآتي: ملك تواق إلى تفسير رؤيا،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دؤوب في بحثه عمن يستطيع تأويلها.. وحشد من العلماء والحكماء يفشلون في تأويل تلك الرؤيا، بل وحتى في تصنيفها.. ثم وجود شخص بالقصر مرَّ من سنوات بتجربة ناجحة، عندما وجد من يؤوّل له رؤيا تحققت في عالم الواقع، ألا وهو ساقي الملك.. ثم وجود شخص عليم، يبلِّغ وينذر ويحمل المفاتيح لحل الأزمة الموجودة في القصر، لكنه قابع في احد جدران السجن، ومنسي منذ سنوات.. فكيف يمكن أن تتجمع الأمور كلها حول مرتكز واحد لحل الأزمة التي شغلت الملك، وجهاز الدولة، بمن فيه من رجال علم ومعرفة؟ هنا، يرى الإنسان الكمال في التخطيط الإلهي.. الذي يضع يوسف في محور الاهتمام.

وفي حسن الرعاية الإلهية التي افاض بها الله عزّ وجل على يوسف، لم يكن مستغربا أن يتذكر الساقي، الذي نجا كما بشّره سابقا، يوسف، صاحب تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه الذي صلب، حتى ولو بعد هذه المدة الطويلة. وبذلك، خاطب الملك قائلا: يوجد في السجن رجل صادق حليم يمتلك العلم المتطلب لتعبير الرؤى، وطلب منه إرساله إليه، ليأتيه بتفسير الرؤيا. فوافق على طلبه، وأرسله إلى السجن، مكان وجود يوسف وقتئذ. فالسجن كما روى ابن عباس، لم يكن في المدينة(٣).

«قال الذي نجا منهما وادَّكر بعد أُمَّة أنا أنبئكم بتأويله
فأرسلون» (٤٥، سورة «يوسف»)

المشهد الثاني

ومع وصول الساقي إلى السجن يفتح الستار في هذا المشهد عنه وهو يلتقي بيوسف، ذلك الإنسان العظيم، والنبي الكريم، الذي بعث الطمأنينة في نفسه وقت ضيق ومعاناة، عندما بشّره بالخروج من السجن قبل سنوات. ولكن تبعا للأسلوب القرآني في «الإيجاز»، فلم يتطرق السياق للحديث عن لحظة اللقاء وما انتابها من أحاسيس ومشاعر متفاوتة لكل منهما، بل ركز رأسا على النقطة المعنية بالأمر.. نقطة تأويل رؤيا الملك التي شغلت السلطة، ورجال العلم والمعرفة:

«يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون» (٤٦، سورة «يوسف»)

لقد سمى الساقي يوسف هنا صديقا على أساس أنه:

لم يجرب عليه كذبا قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط وقيل سماه صديقا لأنه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن(٤).

بعد مخاطبته بالصديق، استطرد الساقي قائلا، أخبرنا عن تأويل رؤيا الملك التي ذكرتها لك كي أعود إليه وإلى من حوله من أصحاب العلم والمعرفة، بتأويلها، لعلهم يدركون عندئذٍ منزلتك ومكانتك في العلم فيطلبوك، ويخلصوك من محنة ومعاناة السجن. وهنا، اقدم يوسف على تأويل الرؤيا كالآتي:

«قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبلة إلا قليلا مما تأكلون. ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدّمتم لهن إلا قليلا مما تُحصِنون. ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصِرون» (٤٧، ٤٨، ٤٩، سورة «يوسف»)

بالنسبة لشرح هذه الآيات، ورد ما يلي في كتاب «صفوة التفاسير»:

تزرعون سبع سنين دائبين بجد وعزيمة «فما حصدتم فذروه في سنبله» أي فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوّس «إلا قليلا مما تأكلون» أي إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله... ثم يأتي بعد سني الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس... تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء... إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم يأتي بعد سني القحط والجدب العصيبة عام رخاء، فيه يمطر الناس ويغاثون. وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه(٥).

على ضوء هذا الشرح عن الزراعة والحصاد، نذكر أن تأويل يوسف للرؤيا يحمل في طياته معانٍ أزلية بالنسبة للأمم، فحياة الأمم، لا تسير على وتيرة واحدة، بل تتأرجح بين فترات خصب وفترات قحط.. بين رخاء وكساد.. أو غنى وفقر.. اذ أن الزراعة من الموارد الأساسية المتطلبة لبناء اقتصاد سليم. ولكن للمحافظة على المجتمع من خطر الجوع والفقر، وما يجره من أوبئة وكوارث على حياة الشعوب، ينبغي على المسؤولين أن يكونوا على مستوى سليم من الوعي واليقظة: بحيث يحيطون المزارعين علما بالوسائل التي تكفل الحفاظ على حصيلة سنوات الخصب، لاستخدامها في سنوات الجدب. والقصة هنا تزود الإنسان بأفضل الوسائل اللازمة لتحقيق الهدف في أيّ مجتمع زراعي، على أن ادخار حصيلة سنوات الخصب لسنوات الجدب، يحمي الأمم من الكوارث الاقتصادية، التي لو تفاقمت فسوف تهزها هزا، بل وتطيح بها في كثير من الأحيان. هذا من جهة، أما من جهة اخرى، فإن تأويل يوسف لرؤيا الملك، يشير إلى تساوٍ بين عدد سنوات الرخاء وسنوات الجدب في حياة الأمم... سبع سنوات بسبع سنوات.. تنتهي بانتهائها كلها دورة تاريخية، لتبدأ بعدها دورة اخرى جديدة متميزة بالخصب، وما يتبعه من رخاء وازدهار وأمل مشرق بحياة آمنة.

المشهد الثالث

ولكن، بالعودة ثانيةً إلى أحداث القصة، بعد رجوع الساقي وإخباره الملك بتأويل يوسف لرؤياه، يظهر هذا الملك وهو يطلب احضار يوسف بين يديه. وطبيعي أن مثل هذا الطلب كان متوقعاً.. فَمَلِكٌ يرى في منامه رؤيا يحس أهميتها دون أن يدرك معناها الخاص، لا يمكنه إلا أن يستدعي من تمكن من تأويلها، وخصوصا بعد فشل من ظن بهم القدرة على تحقيق الهدف. فيوسف أصبح، من الآن، يحتل الصدارة في العلم، ويتقدم على سواه، ولو أنه كان في السجن. وبطلب من الملك هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرة، عاد الساقي ثانية إلى يوسف، الذي رفض الخروج، إلا بعد الحصول على البراءة العلنية من امرأة العزيز، ونسوة المدينة:

«وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن ايديهن إن ربي بكيدهن عليم» (٥٠، سورة «يوسف»)

إن موقف يوسف هذا، يحمل حكمة كبيرة في ثناياه. فلو خرج من السجن بناء على تقدير الملك لعلمه، دون حصوله على البراءة مما اتهم به حين وَضعه بالسجن (وهو مراودته لامرأة العزيز) لبقي موقفه حرجا أمام الجميع، ولتعرّض، مجددا، إلى كيد أكبر. فإذا لم تستأصل بذرة الكيد فإنها ستعود إلى الانتعاش في الوقت المناسب، لأن كيد النسوة له كان كبيرا، مؤلماً ومجحفاً بحقه، ولا يعلم أثره على نفسه المبتلاة غير الله عزّ وجل. ومن هنا قال يوسف «إن ربي بكيدهن عليم»:

يعني أن الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن في هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف إلى الملك بهذه الرسالة(٦).

فهل استجاب الملك له؟ وهل أولى الأمر اهتماما كافيا؟ من المؤكد أنه فعل ذلك، كما يتجلى في، قوله الكريم:

«قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين» (٥١، سورة «يوسف»)

إن كلمة «خطبكن» تبيّن اهتمام الملك العظيم بقضية يوسف، فالخطب باللغة «الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث لغرابته....» كما ورد في كتاب «تفسير المنار» للسيد محمد رشيد رضا(٧). وبصدد اهتمام الملك بالقضية، أورد سيد قطب ما يلي:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكأن الملك كان قد استقصى، فعلم امرهن قبل أن يواجههن، وهو المعتاد في مثل هذه الأحوال،. ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه(٨).

في مواجهة تلك النسوة، وجه الملك لهن السؤال الآتي: هل لاحظتن أيّ ميل من جانب يوسف لكن؟ «قلن حاش لله» أي معاذ الله، ما علمنا عنه من خيانة في أيّ أمر من الأمور.. فهو عفيف بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وبشهادة كل النسوة، اللاتي قطعن ايديهن، بالعفة ليوسف، اقفلت كل أبواب المراوغة أمام امرأة العزيز، فوجدت نفسها مجبرة على الإقرار بالحقيقة أمام الجميع، واعترفت عندها بأنها هي التي دعت يوسف إلى نفسها، مؤكدة صدق ما قاله لزوجها العزيز، في صدد مراودتها له واستعصامه، عندما غلقت الأبواب منذ سنوات.

اذن، حتى هذه النقطة، فالموقف تمثل كالآتي: ملك يحقق في قضية اخلاقية ألصقت بإنسان بريء لما تمسك به من فضيلة، في عصر الإباحية... ونسوة أخذن بشاب جميل، وضغطن عليه للنزول عند رغباتهن، ثم اعترفن له بالعفة أمام الملك.. وامرأة خبيثة ماكرة شريرة تسببت في سجن هذا الإنسان البريء لسنوات طوال، اضطرت، اخيراً، للاعتراف بالحق أمام واقع جديد لا مفرّ لها منه.. وإنسان عظيم ينتظر تبرئته للخروج، ثانية، إلى ميدان الحياة، ورسول من عند الملك يعود إليه لإخباره بهذه البراءة.. وشرح من جانبه لأهمية حرصه على نيلها:

«ذلك ليعلمَ أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» (٥٢، سورة «يوسف»)

إن تميز يوسف بالأخلاق العالية أثار في نفسه نوعا خاصا من الحساسية عندما اتهمته امرأة العزيز بمراودته لها. فهو لم يستجب لإغرائها، وذلك من منطلق العقيدة والمبدأ، وتقديراً منه لأفضال زوجها عليه.. الذي أمّن له الراحة، وأوصاها بإكرامه، لأنه كان عنده بمنزلة الإبن الذي أراد تبنيه حيث رأى فيه خيرا ومنفعة مستقبلية لهما. والآن، بعد أن قاسى يوسف ما قاساه من منطلق تمسكه بالعقيدة والمبدأ وفضائل الدين، رأى الوقت مناسبا لتبرئة نفسه، بشهادة الجميع، من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مراودته لزوجة العزيز في غيبته كما ادعت، مختتما كلامه بقوله «وإن الله لا يهدي كيد الخائنين» بمعنى:

> إني لو كنت خائفا لما خلصني الله من هذه الورطة التي وقعت فيها لأن الله لا يهدي... كيد الخائنين(٩).

ولكن ومع تأكيد براءته للعزيز فقد أضاف ما يلي:

> «وما أُبرّىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم» (٥٣، سورة «يوسف»)

وفي صدد هذه الآية قال الحسن:

> إن يوسف لما قال ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب خاف أن يكون قد زكى نفسه فقال وما ابرىء نفسي لأن الله تعالى قال فلا تزكوا انفسكم ففي قوله وما أبرىء نفسي هضم للنفس وانكسار وتواضع لله عزّ وجل فإن رؤية النفس في مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فأراد ازالة ذلك عن نفسه(١٠).

إن آية (وما ابرىء نفسي....) تؤكد مرّة اخرى، أن همَّ يوسف بامرأة العزيز كان همًّا نفسيا، كما ذكر سابقا، وتشكل، بناء على ذلك، دليلا آخر على عدم استجابة يوسف لمراودة امرأة العزيز بالإطار الفعلي عندما غلّقت الأبواب وقالت «هيت لك». وبالرغم من الموقف الحرج وصعوبته على يوسف كإنسان، فإيمانه بالله، زوده بالحصانة ضد الهمّ النفسي، فاستعصم.

الدروس والعبر

يحتوي هذا الفصل بمشاهده الثلاثة على عِبَر ودروس للإنسان من زاويتين: زاوية الفضيحة الأخلاقية للمرأة المتزوجة من رجل مهم (امرأة العزيز) ثم زاوية ظلم بعض المجتمعات لأصحاب العلم والفضائل والأخلاق، وإهمالهم لهم احيانا،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كعقاب لهم، بسبب تمسكهم بالمبادئ الروحية، وعدم مجاراتهم للمتحررين من قيود الأخلاق (وضع يوسف بالسجن). بالنسبة للنقطة الأولى، فالقصة تبيّن أن المضي في طريق المراوغة والكذب من أجل الإبقاء على سمعة امرأةٍ وزوجها (العزيز وامرأته)، من خلال زجّ إنسان بريء في السجن بسبب اتهامه بمراودة المرأة المعنية بالأمر، لا يجدي نفعا بالنتيجة. فالحقيقة ستظهر ولو بعد سنوات، طالما أن المُطالب بالحق والمدعم بالتأييد الإلهي موجود.. وعندما تكشف، ستكشف بالأسلوب القضائي، المبني على التحقيق والشهادة. وبهذا تأخذ الأمور طابعا رسميا وتنشر الحقيقة تلك من خلال وسائل الإعلام الموجودة في كل عصر، بأشكالها المختلفة. وهذا ما يفسر عدم النجاح في كبت ونسيان قصة امرأة العزيز كما خطط لها. وبناء على طلب يوسف بالتحقيق، فقد خرجت الأمور من يدها ويد زوجها، واضطرت للاعتراف بما فعلته... فصدرت براءة يوسف من القصر، ومن الملك نفسه، حاكم البلاد. وبهذا أصبح اسم يوسف مقترنا بالقوة والصلابة، والقدرة على صدّ الإغراء الذي أحاط به في أول شبابه، في حين أن اسم امرأة العزيز أصبح مقترنا بالخزي والعار والابتذال، كما أصبح يوسف المثل الأعلى للسمو الأخلاقي في حين أنها، أصبحت مثلا للانحدار الخُلقي. وبذلك، فالقصة توجّه نحو ضرورة الاقتداء بيوسف من حيث التصرف، بقوة الإيمان والحكمة والتعقل، وبالمقابل توجه النساء نحو الابتعاد عن اسلوب امرأة العزيز اللا أخلاقي، لأنه، لا يؤدي بالنتيجة، إلا إلى الخزي في الدنيا والآخرة.

اما فيما يتعلق بالظلم، لأصحاب العلم والفضائل، فالقصة ركزت على زجّ يوسف في السجن، ومعاناته لتميزه بالخلق العظيم والفضيلة والعلم في مجتمع سادت فيه اللا أخلاقية. ولولا رحمة الله تعالى عليه، بتدبيره لتأويل رؤيا الملك، لبقي يقاسي من نسيان أكبر.. يشفي غليل امرأة العزيز ومن نحا نحوها، لكن ومع ذلك، فالقصة تبيّن أنه بالرغم من وجود فئة حاقدة ظالمة لم تعرف قدر أهل العلم والأخلاق، فهنالك الملك - وهو الأهم - عرف قدرهم. وعلم يوسف في تفسير الرؤى، دفع بالملك لعمل المستحيل من أجل الحصول على صحبته والاستفادة منه. وبهذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإطار، توجّه القصة نحو ضرورة احترام أصحاب العلم والفضائل من قبل المسؤولين في أي بلد معني بالأمر. وصحيح أن يوسف كان نبيا، بكل ما هو مخصص له من منزلة روحية عظيمة، إلا أن رجال العلم من أصحاب الإيمان المستنير، يمكنهم أن يساهموا أيضا، بدفع عملية التقدم نحو الأمام قدر طاقاتهم. وتجدر الإشارة هنا، إلى أن كل هذه المعاني الأزلية تشكّل دلائل على إعجاز القرآن.

ولكن للانتقال ثانية إلى ساحة الأحداث، فماذا جرى بعد قول يوسف «وما ابرىء نفسي....»؟ هذا ما سيشكّل موضوعا للبحث في الفصل القادم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوامش

١ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤١٢.

٢ ـ ابن خلدون، **المصدر السابق**، ص. ١٠٨٣.

٣ ـ الصابوني، **المصدر السابق**، ص. ٥٥.

٤ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤١٣.

٥ ـ الصابوني، **المصدر السابق**، ص ص. ٥٥ ـ ٥٦.

٦ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص ص. ٤١٥ ـ ٤١٦.

٧ ـ محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، جزء ١١ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، لا. ت.)، ص. ٢٦٦.

٨ ـ قطب، **المصدر السابق**، ص. ١٩٩٥.

٩ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس، **المصدر السابق**، ص. ٤١٧. والجدير بالذكر هنا، أن الآية «٥٢» تفسر على أنها كلمات لامرأة العزيز، من قبل بعض العلماء. فقد ورد في «كتاب مجموعة من التفاسير» ما يلي:

> واختلفوا في قوله (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) على قولين أحدهما أنه من قول المرأة... ومعنى ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه في حال غيبته وهو السجن، ولم أكذب عليه، بل قلت أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، وإن كنت قد قلت فيه ما قلت في حضرته، ثم بالغت في تأكيد هذا القول فقالت «وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» يعني أني لمّا أقدمت على هذا الكيد والمكر لا جرم أني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

افتضحت لأن الله لا ينفذه ولا يسدده أو لا يهدي الخائنين بكيدهم... والقول الثاني إنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهذا قول الغالبية من المفسرين والعلماء.

المصدر نفسه، ص ص. ٤١٦ ـ ٤١٧.

١٠ ـ **المصدر نفسه**، ص. ٤٢٠.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

تولي يوسف لخزائن الأرض: اللقاء مع اخوته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد كشف كل الالتباسات التي احاطت بيوسف منذ سجنه حتى تأويله لرؤيا الملك الأكبر (فرعون مصر)، وما دار بعدها، تضافرت الأسباب لخروجه من السجن، ولكن وهو قوي كما يريد، وبقوته تلك التي نالت إعجاب الملك، افتتح الستار عن المشهد الأول من هذا الفصل، والملك يقول:

المشهد الأول

«وقال الملك إئتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين» (٥٤، سورة «يوسف»)

إن كلمة «أستخلصه» تعني باللغة اجعله خالصا لنفسي، فمن خلال تأويل يوسف لرؤيا الملك، ومن خلال رفضه للخروج من السجن قبل الحصول على البراءة، ادرك الملك أن يوسف كان شخصا فريدا من حيث الغزارة في العلم، والسمو بالأخلاق، والقوة في الإرادة، ثم الصبر، والثبات أمام الشدائد، والقدرة في التغلب على الصعوبات بالعلم والمعرفة والتبصر، والحكمة. وفي وقت توقع فيه الملك حدوث كارثة اقتصادية ـ اجتماعية في تاريخ مصر بموجب تأويل يوسف لرؤياه، رأى أن يوسف خير من يستطيع تقديم العون له بتحمله مسؤولية الحكم في وقت الشدة. وما يثبت ذلك، أنه بعد حوار بينه وبين يوسف عند وصوله للقصر، قال له «إنك اليوم لدينا مكين أمين»، أي صاحب منزلة رفيعة:

> يقال اتخذ فلان عند فلان مكانة أي منزلة وهي الحالة التي يتمكن بها صاحبها مما يريد، وقيل المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفت امانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت إليه وقوله مكين أمين كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا(١).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فماذا قال يوسف للملك، الذي أقرّ بفضائله ومناقبه في الأمور الروحية والدنيوية؟

«قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» ٥٥، سورة «يوسف»)

لقد طلب يوسف من الملك، أن يجعله واليا على خزائن الأرض، أي على كل ما يختص بالأموال والطعام والخراج في مصر. ولم يقدم على مثل هذا الطلب، إلا من منطلق علمه بكفاءته وقدرته الصحيحة على التخطيط والتدبير، وحسن التنفيذ. فيوسف بالنتيجة، كان الشخص الوحيد الذي تمكن من تأويل رؤيا الملك بنقاطها الدقيقة من حيث أسلوب تخزين الغلة في سنوات الخصب لسنوات الجدب أو القحط، وقد عرف ذلك من خلال فيض العلم السماوي عليه نظراً لمكانته الخاصة كنبي. وبما أنه هو الذي تلقّى علم التأويل بصدد أحداث مقبلة بتاريخ مصر، وعلم بالطرق الصحيحة لحل أزمة مقبلة، فمن البديهي أن يكون أكفأ رجل يقوم بالمهمة. فالعلم المعتمد على العقل قد يعجز عن تفسير بعض الأشياء، وإيجاد الحلول لها، في حين أن العلم الموحى (ليوسف) من السماء كان يحمل في طياته الحلول لمشكلة اقتصادية وإجتماعية إنسانية. وبهذا المنظار، يجب إدراك أهمية قول يوسف «إني حفيظ عليم». وتجدر الإشارة هنا، إلى أن كل ذلك يرمي إلى تنبيه الإنسان إلى الابتعاد عن الغرور أو التوهّم بقدرة العقل في التغلب على كل أزمة، ومن ثم، توجيه هذا الإنسان نحو الدين، الذي يعلّمه وسائل الحماية من بعض الكوارث التي قد تعصف بكيانه، لأن العقل يسير جنبا إلى جنب مع الإيمان.

إن يوسف، الذي أفاض الله تعالى بعلمه عليه، ميّزه بتفكير مستنير، جمع بين كمال العلم بمصالح الدين إلى جانب العلم بمصالح الدنيا، وتثبّت في الأرض بالمشيئة الإلهية:

«وكذلك مكّنا ليوسفَ في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نُضيع أجر المحسنين» (٥٦، سورة «يوسف»)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن معنى التمكين هنا:

> هو أن لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وإليه الإشارة بقوله «يتبوأ منها حيث يشاء» لأنه تفسير للتمكين... واستوثق ليوسف ملك مصر وأقام فيه العدل وأحبه الرجال والنساء، فلما اطمأن يوسف في ملكه دبر في جمع الطعام أحسن التدبير، فبنى العديد من الحصون والبيوت، وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة....(٢)

وبهذا، فقد ارتفع اسم يوسف، وأصبح في القمة، وهذه رحمة من الله تعالى أفاضها عليه بسبب تمسكه بالإيمان الصادق والمبدئي، وعندما أحاط به الإغراء من كل جانب.. وقاسى ما قاساه.. ودخل السجن حتى لا تميل نفسه إلى المرأة، ورضي بقسوته، وقيوده وأغلاله بدلا من الرضوخ لسجن النفس، وما ينبعث عن ذلك من ذل دائم.. رضي بقيود مؤقتة مريرة، لكنه كان يعلم بأن الله تعالى لن ينساه من فضله، وإنه سيخرجه، بتدبيره، من الأغلال ليواجه الحياة، ثانية، بعلم وقوة، وقد اكتسب شهرة ملأت الآفاق، إضافة إلى أجر أخروي أكبر:

> «ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتّقون» (٥٧، سورة «يوسف»)

إن ما حصل ليوسف، كما هو مبيّن أعلاه، بأن على الإنسان المؤمن أن لا يستسلم لشهوات النفس مهما بلغت حدة الإغراء حوله، وأن يبني مقاومته تلك على أسس ثابتة من الإيمان الصادق، والتفكير السليم، حتى لا يصبح عبدا للنفس اللوامة، التي لا تجلب له إلا الخسران الدائم. وإذا تغلب على نفسه، فيصبح مالكا لزمام أمره، قويا، قادرا على مواجهة الصعاب، ومحفوظا بالرعاية الإلهية.

المشهد الثاني

بحفظ الله تعالى ليوسف، ورعايته له، وتثبيته في الأرض، تدخل القصة في طور جديد.. طور يتصل فيه حاضر يوسف بماضيه البعيد بالتخطيط الإلهي..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماضيه المختص بعائلته وبإخوته. صحيح أن البعد الزمني كان طويلا بين الحاضر والأمس، إلا أن هذا لم يحل دون حدوث مفاجآت طالما أن الله تعالى أراد ذلك. والمفاجأة التي افتتح بها المشهد الثاني، تتمثل في وصول اخوة يوسف العشرة، إلى مصر، ودخولهم على صاحب خزائن البلاد:

«وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون» (٥٨، سورة «يوسف»)

ان ما يثير الإنتباه في هذه الآية، عدم تمكن اخوة يوسف من التعرف عليه في الوقت الذي تمكن هو من معرفتهم. والأمر ليس مستغربا، فقد تلقى وحيا مسبقا بلقاء مستقبلي مع اخوته عندما رموه في قاع البئر، كما ذكر سابقا. وعدم معرفتهم له أمر متوقع، لأن الفئة التي تحقد على شخص مّا من منطلق الحسد له، وتسعى للتخلص منه بالتخطيط والتنفيذ لمكيدة جماعية ضدّه، ينسى أفرادها هذا الشخص بمجرّد اختفائه الذي يشفي غليل حقدهم، ويمضون في حياتهم العادية كعصبة، وكأن شيئا لم يكن. وهذا ما يفسر عدم معرفة الاخوة ليوسف عند اللقاء به بعد طول عهد.

ولكن لماذا أتى الاخوة إلى مصر، إلى يوسف، المسؤول عن خزائن البلاد بالذات؟ هل كان لذلك علاقة بتدهور الأحوال الاقتصادية بالمنطقة المجاورة لمصر في ذلك الوقت:

قال العلماء لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم ذلك جميع البلاد حتى وصل إلى بلاد الشام قصد الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف لا يعطي احدا أكثر من حمل بعير وإن كان عظيما تقسيطا ومساواة بين الناس. ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه إلى مصر للميرة وامسك عنده بنيامين أخ يوسف لأمه وابيه وارسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء اخوة يوسف، وكانوا عشرة....(٣)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانطلاقا من حاجتهم للطعام، كال لهم يوسف كيلهم، مزودا إياهم بما يحتاجون إليه . وعن ابن عباس، قيل إنه اعطى لكل واحد منهم بعيرا من الطعام، محسنا ضيافتهم في الوقت نفسه(٤).

«ولما جهَّزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين» (٥٩، سورة «يوسف»)

إن اجتماعهم مع يوسف، بكل خلقه العظيم وحذاقته وبراعته في المعاملة، قد دفع بهم للاستئناس بجلسته. وبذلك تطرقوا إلى مواضيع خاصة عن العائلة، عدد افرادها.. عدد من أتى منهم إلى مصر، وعدد من بقي منهم في البيت.. يعقوب وابنه الصغير، أي أخوهم من أبيهم، الذي يبقيه إلى جانبه خوفا عليه. وبمعلوماتهم تلك، فقد أفسحوا له المجال كي يطلب منهم إحضار هذا الأخ الصغير، لهدف عظيم يُكشف عنه السياق في الأحداث القادمة. ولنيل المراد، فقد خاطبهم يوسف بأسلوب يتراوح بين اللين «ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين»، وبيّن الشدّة كما يتمثل بالآية الكريمة:

«فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» (٦٠، سورة «يوسف»)

إن قول يوسف هذا، يحمل معه تخويفا لهم بحيث ينذرهم باستحالة بيعهم طعاما في حال عدم تلبيتهم لطلبه، بل وأكثر من ذلك، فهو ينذرهم ايضا، بعدم قبولهم بالبلاد في مثل هذه الحالة. وتعقيبا على ذلك، ورد ما يلي في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

.... هذا هو نهاية التخويف والترهيب لأنهم كانوا محتاجين إلى تحصيل الطعام ولا يمكنهم تحصيله إلا من عنده فإذا منعهم من العود كان قد ضيق عليهم....(٤)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فماذا كان جوابهم إزاء موقف يوسف هذا؟

«قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون» (٦١، سورة «يوسف»)

أي سنبذل كل جهد لدينا للحصول على موافقة أبينا لإحضاره، وإنا لنضمن مجيئنا به إليك دون أي توانٍ. وبالوصول إلى هذا الحد، قال يوسف لفتيانه، أي غلمانه وأتباعه:

«وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون» (٦٢، سورة «يوسف»)

أي أن يوسف وجّه لأتباعه طلبا بوضع ثمن الطعام الذي دفعه أخوته له، في أوعيتهم لعلّهم يرجعون إليه، كما أخبرهم، بأخيهم الصغير.

وعند هذه النقطة، نذكر أن تصرف يوسف مع اخوته منذ لقائه بهم حتى ساعة رحيلهم، يحمل معه حنكة وخبرة فائقة. فمنذ البداية، أخفى يوسف شخصيته بالرغم من معرفته لهم، مزودا إياهم بكل ما يحتاجونه من الطعام، ومحسنا ضيافتهم، مما أفسح له المجال، للاستحواذ على قلوبهم. ومن هذا المنطلق، فقد استدرجهم للحديث إليه عن العائلة، الوالد يعقوب والأخ الصغير الموجود معه كما ذكر سابقا. وهكذا، جاء طلبه بإحضار أخيه الصغير في مساق طبيعي غير مثير للشكوك. ولكن بما أن يوسف كان يقدِّر، بحكم التجربة والعلم والنظر، امكانية رفض والده لطلبهم، وخصوصا بعد اختفائه، فكان لا بد له من الضغط عليه تارة باللطف، وتارة اخرى بالتخويف من فقدان الطعام.. الأمر الذي دفعهم إلى إعطاء تأكيدات له بتلبيتهم طلبه، من خلال العمل الجاد، والجهد الكبير. ولكن رغم ذلك، فيبدو أن يوسف قد رأى أن أسلوبه هذا لا يكفل الضمان الكامل لإحضارهم أخاه بالرغم من تأكيداتهم تلك. ومن هنا، لجأ إلى اسلوب آخر إضافة إلى الأسلوب السابق، تمثل في إرجاع ما دفعوه ثمناً لطعامهم سراً، من خلال وضعه بأمتعتهم.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والآن، هل سارت الأمور في صالح طلب يوسف بعد عودة الاخوة إلى أبيهم؟ هذا ما سيكشف عنه السياق في المرحلة التالية:

المشهد الثالث

«فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنّا له لحافظون. قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على اخيه من قبل فالله خير حافظ وهو أرحم الراحمين» (٦٣، ٦٤، سورة «يوسف»)

عند رجوع الاخوة العشرة إلى يعقوب، شرعوا رأسا بإخبار أبيهم عن الحقيقة بقولهم (منع منا الكيل)، والتعبير هذا يحمل معنيين:

احدهما أنهم لما اخبروا يوسف بأخيهم من أبيهم طلبوا منه الطعام لأبيهم وأخيهم، المتخلف عند أبيهم فمنعهم من ذلك حتى يحضر فقولهم منع منا الكيل إشارة إليه واراد بالكيل الطعام لأنه يكال والقول الثاني إنه سيمنع منا الكيل في المستقبل وهو إشارة إلى قول يوسف «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» وقال الحسن يمنع منا الكيل ان لم نحمل معنا اخانا وهو قوله تعالى اخبارا عنهم «فارسل معنا اخانا» يعني بنيامين (نكتل)... نحن جميعا واياه معنا «وانا له لحافظون»... نرده إليك....(٥)

إن طلب الاخوة هذا من أبيهم اثار الذكريات والشجون في نفسه.. فكأن اليوم التقى بالأمس.. بالأمس طلب اخوة يوسف منه إرسال يوسف معهم إلى الصحراء للرتع واللعب، ولم يعودوا به، بل عادوا بأثر منه.. عادوا بقميصه الملطخ بالدم الكذب بحجة أن ذئباً أكله.. واليوم يطلبون منه إرسال اخ يوسف الصغير معهم، مع تعهدهم بالحفاظ عليه. إن عدم وفائهم بالتزامهم الحفاظ على يوسف منذ سنين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلت، دفع يعقوب لتوجيه السؤال الآتي لهم: اذا لم تلتزموا بالضمان برد يوسف سالما، فكيف يمكنكم أن تحافظوا على اخيه؟ وبالوصول إلى هذه النقطة، أخبرهم بأن حفظ الله لابنه خير من حفظهم له، فهو ارحم به منهم. على أن ذلك يبين أن يعقوب فَقدَ الثقة بأبنائه العشرة منذ الحادث المؤسف ليوسف، وتوسل إلى الله تعالى لكي ينعم عليه بحفظه خوفا من تجمع مصيبتين لديه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الجزء من القصة يعالج قضية الأثر الناتج عن عدم التزام بالعهود من جانب من يدّعون الحفظ للمواثيق، كما ان عدم التزام الاخوة بتعهداتهم ليعقوب بالحفاظ على يوسف هزّ ثقة أبيهم بهم كممثلين لعصبيته. وبذلك، فقد أصبح من المتوقع أن ينظر - لأيّ طلب مماثل لطلب اسبق نكثوا به - بحذر وارتياب، إلى أن يتحقق من صدقه بالدليل.. ازاء هذا الموقف، الذي لا يعلم كنهه، إلا الله تعالى، فقد التجأ يعقوب إلى السماء لإدخال الطمأنينة إلى قلبه. ويبدو أن هذه الطمأنينة قد بدأت، نوعاً مّا، بالدخول إلى قلب يعقوب مع الأحداث القادمة المتمثلة في ظهور دليل على صدق قولهم:

> «ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردّت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير» (٦٥، سورة «يوسف»).

عندما فتح الاخوة امتعتهم وجدوا فيها ثمن الطعام الذي كانوا قد دفعوه ليوسف عند ذهابهم إليه، مما يعني أنهم حصلوا على دليل مادي لإثبات صدق كلامهم فيما يختص بما كانوا قد ذكروه لوالدهم عن ضيافة عزيز مصر (أي يوسف) لهم، ولطفه معهم. وبذلك، سارعوا لإخبار والدهم عن عدم تجاوزهم الحق في اقوالهم تلك، فهذه دراهمهم قد ردت إليهم، مما يثبت كرم صاحب الخزائن نحوهم. وبهذا حثوا يعقوب على الاستجابة لطلبهم بإرسال اخيهم الصغير معهم، لكي يجلبوا لأهلهم «ميرة»، أي الطعام من بلد آخر، مع تعهد ثانٍ منهم بالحفاظ على هذا الأخ، الذي يزيدهم وجوده معهم حمل بعير من الطعام. وعند هذا الحد، قالوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوالدهم إن طلبهم هذا يسير، هين، وسهل التنفيذ. فماذا كان موقف يعقوب من كلامهم؟ هل استجاب لمطلبهم؟ ام لا؟ واذا استجاب فهل وضع شروطا لذلك؟:

«قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني مَوْثِقاً من الله لتأتُنّني به إلا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل» (٦٦، سورة «يوسف»).

لقد اشترط يعقوب ارسال ابنه بإيتاء موثق من الله تعالى، من قبل اخوته. والموثق في اللغة هو «العهد المؤكد باليمين وقيل هو المؤكد باشهاد الله عليه»(٦).

اما عبارة «لتأتُنّني به الا أن يحاط بكم» فقد ورد تفسيرها كالآتي في «كتاب مجموعة من التفاسير»:

.... حتى تحلفوا بالله لتأتننّي به... الا أن تهلكوا جميعا فيكون عذرا لكم عندي... وقال قتادة إلا أن تغلبوا جميعا فلا تقدروا على الرجوع(٧).

فلما اعطوا يعقوب عهودهم من الله تعالى على ردّ اخيهم إليه، قال يعقوب «الله شاهد على ما نقول»، فكأن «الشاهد وكيل بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد »(٨). وبذلك أرسل بنيامين مع اخوته.

الدروس والعبر والاعجاز في المعنى

إن هذا الفصل بمشاهده الثلاثة يحمل معه افكارا ازلية بصدد موضوع «الضعف والقوة» والدور الإلهي في تحويل الضعف إلى قوة عظيمة، والقوة المبنية على أساس الغرور بالجماعة الإنسانية إلى ضعف. عندما رمى اخوة يوسف بأخيهم في البئر، فقد فعلوا ذلك تحت تأثير الشعور بالحسد منه من جهة، واعتداد بالقوة العددية من جهة اخرى، ولم يحسبوا أي حساب لإمكانية حدوث انقلاب بالموازين في وقت ما. فكل همّهم كان منصبّاً، وقتئذ، على إبعاد هذا الفرد، الضعيف لصغر سنه، عن بيتهم للاستئثار بالمكانة لدى أبيهم ولتطلعات رئاسية، ظناً منهم أن